سلسلة

غزوات الرسول الأعظم

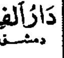
صلى الله عليه وسلم

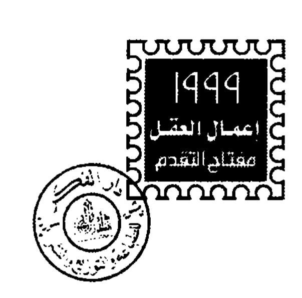
الدكتور شوقي أبو خليل

غزوة خيبر

الفتح القريب







الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٤
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٠٦٢٨,٠٣١
الرقم الدولي للسلسة: ISBN: 1-57547-102-7
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-107-8
الرقم الموضوعي: ٢٧٠
الموضوع: السيرة النبوية
السلسلة: غزوات الرسول الأعظم
العنوان: غزوة خيبر (الفتح القريب)
التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٣٦ ص
قياس الصفحة: ١٤× ٢٠ سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

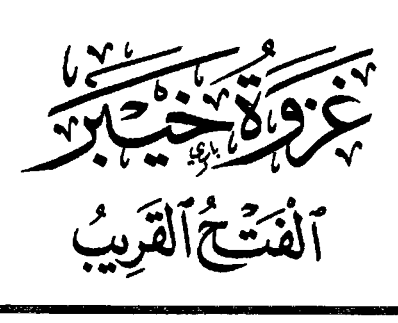
دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

إعادة

١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م

ط١: ١٩٨٣م


بسم الله الرحمن الرحيم


غزوة خيبر
الفتح القريب

غزوة خيبر : الفتح القريب / شوقي أبو خليل . ـ دمشق : دار الفكر ، ١٩٩٦ . ـ ١٣٢ ص : ؛ ٢٠ سم.

١ ـ ٩٥٦,٠٢ خ ل ي غ ٢ ـ ٢١٩,٥ خ ل ي غ

٣ ـ العنوان ٤ ـ أبو خليل

مكتبة الأسد

ع ـ ١٩٩٦/٦/٧١٢

مَا بَدَأَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حرباً قطّ ،
إذ كان حريصاً ألا يُراق دم إنساني
فهو نبيُّ المرحمة .
ولكن إذا كانت لا محالة واقعة كان رَجُلَهَا
الأول . . فهو نبيُّ الملحمة .
لقد كان عظيماً في رحمته بالناس ،
عظيماً في استعداده للحرب ، عظيماً في
خططه ، عظيماً في تحقيق النّصر واستثماره .



☆ **بعد مهادنة قريش في صلح الحديبية، كان لا بُدَّ من توحيد شبه جزيرة العرب تحت راية الإسلام، ومن الصعب تحقيق ذلك والخطر ما زال جاثماً في شمالِ المدينة تترأسه خيبر، للقضاء على الإسلام والمسلمين.**

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..

يقول كارل بروكلمان: «حاول النبي أن يعوِّض عن فشله الظاهري في الحديبية، فقاد المسلمين على المستعمرة اليهودية الغنيَّة في خيبر»[١].

ويقول يوليوس فلهاوزن في معرض حديثه عن اليهود: «حاول محمد أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد»[٢]، وقال: «إجلاء اليهود ـ عن الحجاز ـ باستعمال وسائل غير مقدَّسة»[٣].

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٥٦.

(٢) تاريخ الدولة العربية، ص ١٥.

(٣) تاريخ الدولة العربية، ص ٢٢.

ويقول جان باجوث غلوب: «إن سبب غزو الرسول لخيبر، هو إزالة ما لحق بالمسلمين من خيبة أمل في صلح الحديبية»[١].

وأصدرت منظمة اليونسكو عام ١٩٦٨ الحلقة الحادية عشرة من سلسلة يوميات تاريخ العالم[٢]، التي خصّصتها المنظّمة للموضوعات المتّصِلَة بتاريخ العالم، تمهيداً لعرضها على اللجنة الدولية المكلّفة بإعداد تاريخ التطور العلمي والثقافي للبشرية، جاء في الكتاب: «إن الفتح الإسلامي هو مبدأ عصر التشتيت، أو (دياسبورا[٣]) لليهود».

ويقول مرجليوث[٤]: «عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته

---

(١) الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٢٨.

(٢) Social life and Social Values of the Jewish People (Journal of World History, vol, xi, 1,2,1968)
واشترك في تأليف هذا الكتاب تسعة عشر مؤلفاً جلُّهم من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة العبرية بالقدس، منهم صاحب القول أعلاه: بن صهيون دينور.

(٣) التشتيت: يعرف في العبرية باسم (جالوث)، وفي اليونانية (دياسبورا).

(٤) في كتابه:
Muhammed and the Rise of Islam, p. 392-393
وهو دافيد صموئيل مرجليوث، ولد في السابع عشر من شهر تشرين الأول (اكتوبر) من سنة ١٨٥٨ م بلندن، وهو أكبر أولاد أبيه حزقيل مرجليوث، وكان من المبشّرين، وأُمُّه جيسي ابنة قسيس يدعى بابن سمث. كان أسقف كانتربري عام ١٨٩٦ م. تلقّى العلم في ونشستر، وثم التحق بكلية نيوكوليج بجامعة أكسفورد ونال الدكتوراه في الآداب منها، واشتغل أستاذاً لتدريس اللغة العربية في الجامعة المذكورة.
راجع مقدمة كتاب (معجم الأدباء) طبعة القاهرة (دار المأمون، الوقت من ذهب، د. =

إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب، ولكن نهب أهل مكة قد يبرّره طرده من بلده، ومسقط رأسه، وضياع أملاكه، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة فقد كان هناك على أية حال سبب ما - حقيقياً كان أو مصطنعاً - يدعو إلى انتقامه منهم، إلا أن خيبر التي تبعد عن المدينة هذا البعد كله، لم يرتكب أهلها في حقّه، ولا في حقّ أتباعه خطأ يعتبر تعدّياً منهم جميعاً، لأن قتل أحدهم رسول الله محمد لا يصح أن يكون سبباً يتذرّع به للانتقام».

ثم ينتهي مرجليوث من ذلك كله إلى أن المسلمين إنما غزوا خيبر للحصول على ما فيها من الغنائم.

ويقول: «إن رسول الله - ﷺ - قد غيّر سياسته مع اليهود ومع المشركين، وهذا يبيّن لنا ذلك التطور العظيم الذي طرأ على سياسة الرسول منذ أيامه الأُولى في المدينة، عندما أعلن مساواة اليهود بالمسلمين، أما الآن فإن مجرد القول بأن جماعة ما - مشركة أو يهودية أو غير مُسْلِمَة - يُعْتَبَر كافياً لشن الغارة عليها، وهذا يفسّر لنا تلك الشهوة التي سيطرت على نفس محمد، والتي دفعته إلى شن غارات متتابعة كما

= أحمد زيد رفاعي) بمطبعة عيسى البابي الحلبي.

وفي الأعلام، جـ ٣ ص ٤: «وله في لغته كتب عن الإسلام والمسلمين، لم يكن فيها مخلصاً للعلم، على الرغم من توسعه في معرفة المسلمين وأدبهم»، المتوفى عام ١٩٤٠، واسمه بالحروف اللاتينية كالتالي: David Samuel Margoliuth

سيطرت على نفس الاسكندر من قبله، ونابليون من بعده».

ثم يقول مرجليوث: «إن استيلاء محمد على خيبر يُبَيِّن لنا إلى أي حد أصبح الإسلام خطراً يهدِّد العالم».

هذه الأقوال، وهذه الآراء والأحكام، ما نصيبها من الصحة؟ وبخاصة بعد أن قدمنا كتابنا (صلح الحديبية: الفتح المبين[1]).

ويمكننا تلخيصها بسبعة بنود:

١ ـ تغيُّر سياسة رسول الله ﷺ التي أعلنها عند الهجرة.
٢ ـ فشل المسلمين في صلح الحديبية، (خيبة أمل في صلح الحديبية).
٣ ـ حاول رسول الله ﷺ أن يظهر اليهود بمظهر الناكثين للعهد.
٤ ـ لم يرتكب أهل خيبر خطأ بحق المسلمين.
٥ ـ غزوة خيبر (للحصول على ما فيها من الغنائم).
٦ ـ التشتت سببه الفتح الإسلامي.
٧ ـ أصبح الإسلام خطراً يهدد العالم.

☆ ☆ ☆

---

(١) الجزء الرابع من هذه السلسلة حسب التسلسل الزمني.

وقبل مناقشة البنود السبعة ، يعترضنا سؤال :

يهود جزيرة العرب الذين رثى المستشرقون لحالهم ، ويبرّئونهم مما اقترفوا بعويل ونحيب ، من هم ؟ ومن أين جاؤوا ؟!

الملاحظ أن اليهود في جزيرة العرب عاشوا معيشة أهلها ، فلبسوا لباسهم ، وتكلّموا لغتهم ، وتصاهروا معهم ، فتزوّج اليهود عربيات ، وتزوج العرب يهوديات .. والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود في جزيرة العرب ، هو اختلاف الدين ، مع تمتّع اليهود بحريّة واسعة لم يحصلوا عليها في أي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد[1] .

اليهود في الجزيرة العربيّة عرب متهوّدون ، لا يهود مهاجرون ، اعتنقوا اليهودية عن طريق التبشير، لأن العصبيّة العربيّة تقيم حاجزاً يحول بين زواج اليهود ـ أو أي عنصر عربي ـ بالعربيات كما هو معروف ، ولعل كون اليهود في الجزيرة من أصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس[2] .

ولم يعرف هؤلاء العرب المتهوّدون من اليهودية غير عقيدة

---

(١) د . جواد علي (تاريخ العرب قبل الإسلام) ٢١/٦ نقلاً عن :

Graetz (History of the Jews) 111, p. 58-60

(٢) (تاريخ العرب قبل الإسلام) ٢١/٦ .

التوحيد، وبعض عبارات عبرية يحفظونها على ظهر قلب، ويردِّدونها دون أن يفهموا معناها عند الصلاة، ولم يكن لهم أيَّة صلة تربطهم بيهود آخرين، غير الاتصال التجاري، الذي كان يمارسه اليهود في أكثر بلاد العالم.

وذكر المؤرخون أن بعض الأنصار كان مسترضعاً في بني قريظة وغيرهم من اليهود فتهوَّدوا[1].

ويؤكد اليعقوبي أن القبائل اليهودية في الجزيرة العربية كانت من أصل عربي، ويعتبر بني النضير فخذ من جذام، إلاَّ أنَّهم تهوَّدوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به، وأن بني قريظة فخذ من جذام أيضاً أخوة النضير، ويروي أن تهوُّدهم كان في أيام عادياء بن السموأل، ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه، ويؤيد ذلك ياقوت الحموي في معجمه فيقول: إن يهود بني قريظة وبني النضير كانوا من القبائل العربية في الجزيرة وقد اعتنقوا اليهودية.

لذلك كانت اليهودية في بلاد العرب لها صبغة خاصَّة، كانت يهودية في أساسها، ولكنها غير خاضعة لكل ما يُعْرَف بالقانون التلمودي[2].

---

(١) د. أحمد سوسة في كتابه (ملامح من تاريخ اليهود في العراق)، ص ٢٤٠.

(٢) Graetz op. cit. 111, p. 75

ويعترف المؤرخون اليهود أنفسهم أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل وانفصال تام عن بقيَّة أبناء دينهم خارج الجزيرة، لذلك لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلفين اليهود، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على انعدام الصلة القوميَّة بينهم وبين يهود العالم، وفي ذلك يقول إسرائيل ولفنسون[1]: إن ثمَّة مراجع عبريَّة غير قليلة عن حياة اليهود في بلاد العراق والفرس ومصر واليونان والرومان، أما يهود الجزيرة العربيَّة فلا نكاد نجد مؤلفات عبرية عنهم، إلا شيئاً ضئيلاً جداً لا يتجاوز بضعة نصوص اندمجت في بعض الكتب اندماجاً عرضياً غير مقصود، فاستنتج من ذلك انقطاع يهود الجزيرة العربية عن بقية اليهود في خارج الجزيرة، وفي جهات العالم، ولم تكن لهم بهم أيَّة صلة.

إن يهود الجزيرة العربية كانوا عرباً تهوَّدوا بطريق التبشير وهم في ديارهم، وبقوا محافظين على قوميتهم ولغتهم العربيَّة من غير أن تكون لهم أيَّة صلة مع يهود العالم، شأنهم في ذلك شأن العرب الذين تنصَّروا[2].

---

(١) د. إسرائيل ولفنسون يهودي صهيوني، أشرف على البحوث الإسرائيلية إلى إفريقية، درَّس تاريخ اللغات السَّامية في جامعة القاهرة، وكان قد حصل على الدكتوراه من هذه الجامعة نفسها تحت إشراف د. طه حسين، من كتبه: تاريخ اللغات السامية، تاريخ اليهود في بلاد العرب، موسى بن ميمون.

(٢) يظن بعض الباحثين أن باب التبشير باليهودية كان مغلقاً منذ القديم، وهذا الظن يخالف الواقع، فاليهود كانوا يتحمَّسُون ويحرصون كل الحرص لحمل أكثر ما يمكن من الناس - ومن

ويلاحظ أن يهود الحجاز عندما أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فضَّلوا الذهاب إلى أذرعات وإلى أماكن أخرى على الذهاب إلى القدس أو غيرها من مدن فلسطين ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يفكروا قط في الإقامة في تلك الأماكن ، وأن قلوبهم لم تكن متعلقة بها ، وإلاّ اختاروا الذهاب إليها ، بل كانت أفئدتهم متعلقة بمواطنهم هذه التي كانوا يقيمون بها بالحجاز[1] .

ويهود اليمن عرب تهوَّدوا أيضاً ، ولما جاء الغزو الحبشي في القرن الرابع للميلاد بتحريض من قياصرة الروم ، بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسميَّة في بلاد الحبشة ، وارتبطت بصلات روحية بالقسطنطينية ، وذلك للضغط على الفرس من جهة ، ولاستثمار التجارة على شواطئ البحر الأحمر من جهة ثانية ، اضطروا إلى الفرار من اليمن ، أو الدخول في النصرانية حفاظاً على أنفسهم وأموالهم . وبعد طرد الأحباش من اليمن لم يستطع اليهود استعادة مركزهم السابق ، ولهذا لم

= مختلف الأقوام ـ على اعتناق اليهودية ، ونافسوا المبشرين المسيحيين ، مما أثار العداء الشديد الدامي بينهما ، واستمرت هذه المنافسة حتى أُغلق التبشير باليهودية في منتصف القرن الثامن عشر للميلاد . (الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية ، ص ٣٠ ، د . سامي سعيد الأحمد) . وجاء : « إنه لمن الخطأ الاعتقاد بأن اليهود لم يقصدوا التبشير باليهودية ، أو لم يقبلوا التَّمذهب بالدين اليهودي » عن :

J. Porkes (A History of the Jewish People, p, 7).

(١) د . جواد علي (تاريخ العرب قبل الإسلام) ، ١٦١/٦ .

نجد لهم ذكراً أو شأناً عندما ظهر الإسلام، كما كان يهود يثرب وشمال الحجاز.

☆ ☆ ☆

ولنعُد بعد هذا العرض إلى النقاط السبع التي وُجِّهَت إلى المسلمين، بسبب حروبهم مع يهود خيبر:

١ ـ تَغَيُّر سياسة رسول الله ﷺ التي أعلنها عند الهجرة:

وقَّع رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة المنوَّرة حلفاً وموادعة ومسالمة مع يهود المدينة، أقرَّهم فيه على دينهم وأموالهم، وضمن لهم المساواة مع المسلمين في المصلحة العامة، وكفل لهم التَّمتُّع بما للمسلمين من حقوق[1].

ولكن بعد غزوة بدر الكبرى، قال يهود بني قينقاع: «يا محمد لا يغرنَّك أنَّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ـ يعنون قريشاً ـ فأصبت منهم فرصة»[2]، ويقول ابن الأثير: «فكانوا أوَّل يهود نقضوا ما بينهم وبينه»، ثم يذكر قصة المرأة المسلمة التي تعرَّض لها اليهود في سوق بني قينقاع[3].

---

(١) ابن هشام: جـ ٢ ص ١٠٦ تحت عنوان: (الرسول يوادع اليهود).

(٢) الاكتفاء: جـ ١ ص ٩٩/أ، الطبري: جـ ٢ ص ٤٨١، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٣.

(٣) الكامل في التاريخ: جـ ٢ ص ٩٦.

وبعد أُحُد ، خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في ديَّة قتيلين للجوار الذي كان عقد بينهما ، والذي نصَّ على أن يعاونوه في الديَّات ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا ، ولكن حتى تُطْعَم وترجع بحاجتك . وكان ﷺ جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم فخلا بعضهم ببعض وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة ، فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟

وقالوا : نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة فنبيعهم من قريش ، فلما أبلَغَهم رسولُ الله ﷺ بما همُّوا به ، سكتوا ولم يقولوا شيئاً ، ولم ينطقوا بحرف ، فأجَّلهم عشراً ، ثم غادروا إلى خيبر.

وأثناء حصار الأحزاب للمدينة ، نقض بنو قريظة عهودهم ، ورسول الله ﷺ والمسلمون في أشد ساعات الحرج . فعقاب بني قريظة قصاص عادل لخيانة علنيَّة ، مع نقض المعاهدة وانحياز لجانب العدو ، ومتى ؟ عندما رأوا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة ، فظنوا أن الأمر قد انتهى ، واستُؤْصِلَ المسلمون عن آخرهم .

فهل غيَّر رسول الله ﷺ سياسته أمْ نَقْضُ العهود والمؤامرات التي حاكها اليهود سببت قصاصاً عادلاً لهم ؟

☆ ☆ ☆

٢ـ فشل المسلمين في صلح الحديبية ، (خيبة أمل في صلح الحديبية) :

وكيف يكون ذلك وقد حقَّق الصلح اعترافاً رسمياً بالمسلمين، وأضحى المسلمون فيه طرفاً مساوياً لقريش صاحبة الزعامة والنفوذ في جزيرة العرب ؟ مع الحق الكامل في نشر دينهم ، وهذا غاية ما يبتغون .

أيَّة خيبة أمل هذه ، وقد دخل في الإسلام في سنتين من صلح الحديبية ما دخل فيه قبلاً ؟

ولن نتوسَّع في هذا البند ، لأننا رددنا عليه بشكل مفصَّل في الجزء الخاص بـ : (صلح الحديبية ، الفتح المبين) من هذه السلسلة .

☆ ☆ ☆

٣ـ حاول رسول الله ﷺ أن يظهر اليهود بمظهر الناكثين للعهد :

كيف ذلك ؟

هل رسول الله ﷺ هو الذي دفعهم وأرسلهم إلى مكَّة يحرضون قريشاً عليه ؟ أما قالوا لقريش : إنا سنكون معكم عليه حتى

نستأصله[1] ؟

وهل هو الذي أرسلهم بعدها إلى غطفان يحرضهم عليه ؟

وهل رسول الله ﷺ قال لحُيَيّ بن أخطب سيد بني النضير، اذهب إلى قريش وقل : إن قومي معكم ، وهم أهل حلقة وافرة ، وهم سبعمئة مقاتل وخمسون مقاتلاً ؟ فقال أبو سفيان : ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد .

فخرج حُيَيّ حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة ، وولي عهدهم الذي عاهدهم عليه رسول الله ﷺ ، فنقض العهد ومزّق الكتاب الذي كتبه مع رسول الله ﷺ .

كل هذا ويقول مغرض متحيِّز : حاول رسول الله ﷺ أن يظهر اليهود بمظهر الناكثين للعهد ؟

وإذا تحدث التاريخ عن وفاء رسول الله ﷺ لعهوده ، حتى دفع ديات من قُتِلَ منهم خطأ ، وعفوه عن كل معتد مسيء منهم جاءه تائباً ، وأنَّه ﷺ كان يُشَيِّع جنازاتهم ، ويحضر ولائمهم ، ويعود مرضاهم ، ويقترض منهم حتى توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند بعض اليهود في

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٣/ب ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٥ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٢٩ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٩٢ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٢٧ ، الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٧٦ ، الطبري : جـ ٢ ص ٥٦٤ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٨١ .

المدينة، وكان ﷺ يفعل ذلك إرشاداً وتعليماً للمسلمين، إذ كان في الصحابة من يقرض رسول الله ﷺ، بل ويؤثره على نفسه.

إذا تحدث التاريخ بذلك، أصمّ مرجليوث ـ ومن على رأيه ـ آذانهم، فالتاريخ هنا يقوّض ما قال، وينقض ادعاءه.

☆ ☆ ☆

٤ـ لم يرتكب أهل خيبر خطأ بحق المسلمين:

عجيب غريب!! أما جعل وفدُ اليهود برئاسة حُيَيّ بن أخطب لغطفان ـ تحريضاً على الخروج ـ نصفَ تمر خيبر كل عام[(١)]؟

يقول د. حسن إبراهيم حسن[(٢)]: «وإنا لنعجب لهذا الأسلوب الذي ذهب إليه مرجليوث ومن نحا نحوه في قراءة التاريخ[(٣)]، فإن حدثه التاريخ أن رسول الله ﷺ أتى بعين ـ بجاسوس ـ أقر لهم بأنه بعث إلى خيبر يعرض عليه معونة فَدَك ونصرتها على أن يجعلوا لهم تمر خيبر، أو قال: إن الذي قبض على هذا العين إنما هو علي بن أبي طالب رضي

---

(١) في السيرة الحلبية: ٣٢٩/٢: «وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إن هم نصروهم عليه»، «ونصف تمر خيبر» في الاكتفاء: جـ ١ ص ١١٣/ب.

(٢) تاريخ الإسلام: جـ ١ ص ١٣٤.

(٣) نعجب لهذا الأسلوب في قراءة تاريخنا العربي الإسلامي فقط، أما تاريخهم الأوربي فيقرؤونه غير هذه القراءة!؟!

الله عنه الذي ذهب إلى فَدَك لما علم رسول الله ﷺ أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر، شكَّ مرجليوث في صدق التاريخ وأمانته، لأن صدق التاريخ في هذه الحالة يدحض دعواه، ويصد هجماته على الرسول والمسلمين».

وإن قرَّر التاريخ أن تحالفاً يهودياً برئاسة خيبر ضم يهود تيماء وفَدَك ووادي القرى، مع غطفان، تحت زعامة سلام بن مشكم، هدفه غزو المدينة، وضع مرجليوث أصابعه في أُذنيه.

وإن تساءل إنسان: هل كان من الممكن بدل غزوهم، عقد صلح معهم كصلح الحديبية المعقود مع قريش؟ نجيب: لا، لقد جرّبهم وحالفهم مرات ومرات، فلم يلق ﷺ منهم غير الغدر والخيانة والتآمر ونقض العهود[1].

فهل صحيح لم يرتكب أهل خيبر خطأ بحقٍّ المسلمين، رغم تحريضهم قريشاً وغطفان، ورغم الحلف الذي تزعموه لغزو المدينة؟

لقد عذر مرجليوث رسولَ الله ﷺ في حربه لقريش وليهود المدينة، ولم يعذره في غزوة خيبر، لقد جمع بين إعذاره الأول، والحمل

(١) كما خشي رسول الله ﷺ اتصالهم بالروم أو الفرس، أو مع قريش ثانية لعقد تحالف لغزو المدينة ..

عليه في الأمر الثاني ، ليظهر بمظهر الموضوعي المنصف ، فلم يفلح .

☆ ☆ ☆

٥ً ـ **غزوة خيبر** (للحصول على ما فيها من الغنائم) :

كيف ذلك ؟ وقد قال رسول الله ﷺ للأعراب الذين خرجوا معه رجاء الغنيمة : « لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد ، فأما الغنيمة فلا » .

فالجهاد خالص في سبيل الله عز وجل ، والغنيمة تحصيل حاصل ، ومعاملة بالمثل .



٦ً ـ التَّشتت سببه الفتح الإسلامي :

التَّشتت (دياسبورا) بدأ في آسية بالسَّبْيَين الآشوري والبابلي ، ولم يأت القرن الأول قبل الميلاد إلا وتشتت اليهود في معظم أقطار العالم ، كما يحدثنا الجغرافي الروماني (سترابون) .

التَّشتت بدأ بغزو الملك الآشوري سرجون سماريا في عامي ٧٢٢ ـ ٧٢١ ق . م ، وهذا هو التشتت الأوَّل ، وبنبوخذ نصَّر عندما هزم ملك يهوذا (يوياقيم) ـد ، ٥٩٧ ق . م وقاده أسيراً إلى بابل ، وهذا هو

التَّشتيت الأوَّل ليهوذا ، وفيما بين عـامي ٥٨٩ ـ ٥٨٧ ق . م كان التشتيت الثاني[1] .

وعكس القول ـ في هذا البند السادس ـ هو الصحيح :

إن جميع المؤرخين ـ حتى بعض المؤرخين اليهـود ـ يجمعـون على أن اليهود لم يحظوا طيلة حياتهم بحريَّـة أو استقرار إلا تحت رايـة الإسلام ، وفي كنف العروبة .

وهل لقي اليهود منذ أن احتضنهم العرب والإسلام اضطهاداً لأنهم يهود ؟ أو شعروا بتفرقـة عنصريـة ؟ هـل حيـل بينهم وبين أي عمـل في المجتمـع الإسـلامي ؟ وهـل اعترض طريقهم إلى المعبـد عربي جـاهلي ، أو عربي مسلم ؟

لقد كفل لهم المسلمون حريَّة العبـادة واحترام المقـدَّسـات ، إلا أنهم حاولوا الفتـك بـالمسلمين كلمـا سنحت لهم فرصـة ، وظلوا يحقـدون على المسلمين ، ويتربَّصون بهم الـدوائر ، فقـد عجزوا عن التخلُّص من غريزة الحقد والإيقاع بالمسلمين ، فاليهود يبغضون عادات وتقاليد غيرهم .

ينص التلمود : « على أنَّه يجب على كل يهودي أن يبذل جهوده لمنع

(١) (فلسطين عربيـة) د . فؤاد حسنين علي ، ط ١٩٧٣ ، معهـد البحـوث والـدراسـات العربيـة للتربية والثقافة والعلوم .

تسلط باقي الأُمم في الأرض ، لتصير السلطة لليهود وحدهم ، فإذا لم تكن لهم السلطة عُدُّوا كأنهم في حياة النفي والأَسر، ويعيش اليهود في حرب مع باقي الشعوب حتى ينتقل لهم الثراء والسلطان من الجميع ، حينئذ يدخل الناس أفواجاً في دين اليهود » .

وفي التلمود تأكيد لمبدأ الاستعلاء والتفوُّق العنصري اليهودي على بقية شعوب الأرض ، وجعل الناس عبيداً لليهود على اعتبار أنهم الشعب المختار، وأن الله اصطفاهم دون سواهم من شعوب الأرض ، كما تتجسَّم فيه انعزالية الشعب اليهودي ، وحقه في جميع خيرات الأرض التي وهبها له إلهه الخاص به دون الآخرين من الناس[1] .

ويقول د . أحمد شلبي : « جاء في التلمود كثير من عبارات الطعن والسب للمسيحية وللمسيح ، ما لا يستسيغه المستوى الأخلاقي الإنساني ، وإننا نحجم عن نقل هذه العبارات لعدم لياقة ذكرها . لذلك حرص اليهود على أن لا يطَّلع على التلمود أحد غيرهم ، وقد أخفوه أربعة عشر قرناً منذ أن وضعه حاخاموهم . ففي سنة ١٢٤٣ م أمرت الحكومة الفرنسية في باريس ، بإحراق التلمود علناً بعد أن كشف ما يحتوي عليه من عبارات الطعن والإهانة ضد الأغيار من الناس ، وتمَّ

---

(١) د . أحمد سوسة (ملامح من تاريخ اليهود في العراق) ، ص ١٨٤ .

حرقه عدة مرات في مختلف الأزمان والأقطار»[١] .

وجاء في الدليل السياحي قول ناجيل : « وجد اليهود في العالم الإسلامي أهلاً وسهلاً »[٢] ، فأين التشتيت عند الفتح الإسلامي ؟

☆ ☆ ☆

٧ - أصبح الإسلام خطراً يهدِّد العالم :

عمَّ الرفاه البلاد التي فُتِحَت لاستتباب الأمن فيها ، وعمَّت نهضة علميَّة وطبيَّة ، وكَثُرَت (البيمارستانات) ، والترجمات ، وإحياء الكتب القديمة على يد المسلمين ، ويد سكان البلاد المفتوحة ، فقد كان العلم للجميع ، حتى تمنّى غوستاف لوبون[٣] انتصار العرب في بواتييه (بلاط الشهداء) ، لماذا ؟ لكي يصيب أوروبة النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانية من الحضارة الزاهرة تحت راية الرسول العربي ، ولأضحت باريس مثل قرطبة في إسبانية ، مركزاً للحضارة والعلم ، حيث كان رجل الشارع فيها يكتب ويقرأ ويقرض الشعر أحياناً ، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبة لا يعرفون كتابة أسمائهم ويبصمون بأختامهم .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٤ ، أورده من كتاب (مقارنة الأديان - اليهودية) للدكتور أحمد شلبي .

(٢) Nagels Reise (Israel), Nagel Verbg Genf. 1964, p, 28

(٣) حضارة العرب : ص ٣١٧ .

وقال المبشِّر (لينون هاديس) في كتابه (الإسلام في إفريقية الشرقية) : « المسلمون الذين انتقلوا إلى السواحل ، فإنهم نقلوا إليها الكتابة والعمارة وأدوات الحضارة وطبعوها بطابعهم في كثير من أحوال المعيشة » .

« ولو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخَّرت نهضة أوروبة الحديثة عدَّة قرون » .

« أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سَنْيُورَاتِنا الغليظة في القرون الوسطى ، وتعلَّم فرساننا أرقَّ العواطف وأنبلها وأرحمها »[1] .

لقد كان الإسلام رحمة للعالمين ، وما زال ، ولقد أصدرنا حكماً قرناه بدليل ، أما افتراءاتهم ، فآراء لا دليل لها ، وإنها تقوم على التحامل والحقد الدفين والتعصُّب .

وإذا كان الإسلام خطراً يهدد العالم ، فلماذا تعتنقه اليوم جماعات وجماعات في كل دول العالم ، من اليابان شرقاً ، وحتى أمريكة غرباً ؟ كما وتعتنقه شخصيات ذات شأن ومكانة دولية ، كان آخرها إسلام الفيلسوف

---

(١) القول للمسيو بارتلمي سنت هيلر في كتابه عن القرآن ، أورده لوبون ص ٥٧٦ في (حضارة العرب) .

السياسي ، والمفكر الماركسي روجيه غارودي[1] .

☆ ☆ ☆

هــذا . « والاعتــداء أمر ممقــوت لا الحرب ، وليست كل حرب اعتداء » .

إن حب القتل للقتل ذاتـه خلق رفضـه الإسـلام ، حـارب سفـك الدماء ، وجعلـه غريزة مزجورة ، ولكنهـا ليست مبـادة ، لحـاجتهـا في أوقات مناسبة ، أُولاها الدفاع عن النفس في الحرب الوقائيَّة .

الإقـلاع عن الحروب أمر حسن لا شـك فيـه ، ولكن هـل الـذلـة وقبول التآمر والاعتداء أمر حسن ؟ فلو عـاش اليهود في خيبر واحترموا حقوق المسلمين ، وأزالـوا من نفـوسهم التـآمر والاعتـداء والتعـالي ، فـلا حرب ، أما أن يقبل المسلمون الظلم والتآمر والجور بحجـة أن الحرب أمر

(١) درس (غارودي) الفلسفة ، ويحمل الدكتوراه في الآداب ، ومرتبـة الأستـاذيـة في الفلسفـة . درَّس في الجامعات الفرنسية والجزائريـة ، وانتخب في أوائل الأربعينـات إلى الجمعيـة الوطنيـة الفرنسية ، وتكرر انتخابه أكثر من مرَّة ، وفي عام ١٩٥٦ اختير نـائبـاً لرئيس الجمعيـة الوطنيـة الفرنسيـة ، وفي عـام ١٩٥٩ عضـواً في مجلس الشيـوخ الفرنسي ، وعضـواً في المكتب السيـاسي الشيوعي الفرنسي حتى بـدايـة السبعينـات ، وكان مرشَّح الحزب الشيوعي لرئـاسـة الجمهوريـة الفرنسية . كُتُبُه كثيرة ، كلُّها عن الحريـة والاشتراكيـة العلميَّة مع دراسـات عن الإسلام ، مع بعض الكتب الأدبيَّة والمسرحيـات . وفي ١١ رمضـان ١٤٠٢ هـ الموافق ٢ تموز (يوليو) ١٩٨٢ زار جنيف بدعوة من المؤسَّسة الثقافية الإسلامية ، حيث أعلن إسلامه بوثيقـة رسميـة ، واتخـذ اسم (رجا) اسماً جديداً بدلاً من (روجيه) .

ممقوت فلا. وبخاصة أن موقف الإسلام من الدينين السماويين معروف جلي، وواضح ثابت، وتسامحه معروف، وسعة صدره حقيقة واقعة.

لقد جاء في القرآن الكريم سورة باسم عائلة المسيح: (آل عمران)، و (آل) كلمة تُخاطَبُ بها العائلات الكريمة الطيبة الشريفة.

وسورة باسم معجزة للسَّيِّد المسيح: (المائدة)[1].

وسورة باسم والدته البتول: (مريم).

وسورة باسم الأتباع: (الكهف). وكلُّها من السُّوَر الطوال.

ومع هذا ليست في القرآن الكريم سورة باسم آمنة بنت وهب، ولا سورة باسم بنت من بنات رسول الله ﷺ، ولا سورة باسم بني هاشم.

لقد فتح القرآن الكريم حواراً مع المسيحية عن طريق سورة مريم، حيث التقدير والاحترام والمعجزات للسيد المسيح، ثم فتح مباشرة حواراً في سورة طه ـ وهي مكيَّة، فهي إذن معروفة لليهود منذ الهجرة ـ مع اليهودية، فإذا موسى عليه السلام في القرآن الكريم أعظم منه في التوراة: ﴿ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوَى ﴾[2]، لقد قُدِّس الوادي بمن فيه، بموسى عليه السَّلام، ولم يقدَّس موسى بالوادي.

---

(١) وفيها ثلاث معجزات للسيد المسيح لم تذكر في الأناجيل، وهي: نزول المائدة، التكلُّم في المهد، إحياء الطير.

(٢) [طه : ١٢].

ولو وجدنا في التوراة أو في الإنجيل : واذكر في الكتاب خديجة أو آمنة أو فاطمة .. لكان الحبُّ واللقاء مع من يعظِّم ويقدِّر ويبجِّل ، ولرددنا التحية بأحسن منها ، أو بمثلها على الأقل .

وفتح الحوار للتآلف أمر طبيعي في الإسلام ، لسعة صدره من ناحية ، ولعالميته من ناحية ثانية ، ولكن كيف يقبل اليهود بهذا الحوار، ورسول الله ﷺ ينتقل من نصر إلى نصر ؟!

إن تصرفاتهم ـ قبل خيبر وبعدها ـ سيطرت عليها روح الحفاظ على الامتيازات التي تمتَّعوا بها عندما كان العرب فرقاً وقبائل متنافسة ، ولكن هيهات أن تنجح هذه الروح في ظل الإسلام ، فما كان من عند الله يمضه .

☆ ☆ ☆

وبعد هذه المقدِّمة التي ركَّزنا من خلالها على أسباب حرب رسول الله ﷺ مع اليهود ، بسبب تآمرهم نقول : « قد يتغلَّب المرء على شهواته على ما فيه من حرص وزهو ، ولكن الحسد لا يلبث أن تتَّقد نيرانه في قلب صاحبه على الذين تم لهم النجاح قبل الآخرين » .

ونقول : بعد مهادنة قريش في صلح الحديبية ، كان لا بُدَّ من توحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام ، ومن الصعب تحقيق ذلك

والخطر ما زال جاثماً في شمالي المدينة تترأسه (خيبر)، للقضاء على الإسلام والمسلمين.

فإلى خيبر - على بركة الله - أحداثاً وتعليقاً، مع حفاظنا على النصوص التاريخية دون تشويه. سائلين الله عز وجل التوفيق، والسداد في الرأي، فهو من وراء القصد.



دمشق في: ٦ / ١١ / ١٤٠٢ هـ
الموافق لـ: ٢٤ / ٩ / ١٩٨٢ م

شَوقي أَبو خَليل
ص . ب : ٦٢٢٢
دمشق - سورية
Shawki@ Fikr.com



الموقف بعد صلح الحديبية

☆ «خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر مُسْتَنْجِزاً ميعاد ربِّه، وواثقاً بكفايته ونصره».

(الاكتفاء: ١/١٣١)

ذهل اليهود من انتصارات رسول الله ﷺ في جزيرة العرب.

ويئسوا من معاونة قريش - زعيمة العرب - بعد صلح الحديبية.

فظلوا حيارى لا يدرون ماذا يفعلون؟ فالمال وافر موجود، والرجال كثيرون، وعددهم كبير، والمؤامرات عديدة ومُحْكَمَة، ومع ذلك، النصر إلى جانب رسول الله ﷺ دائماً، والهزائم تحيط بأعدائه.

لقد جعل اليهود كنزاً عظيماً لحرب المسلمين، أما رفع سلام بن أبي الحقيق عند جلاء بني النضير جلد جمل - أو جلد ثور - مملوءاً حُليّاً وذهباً وجواهر، وصار ينادي بأعلى صوته: هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل؟ ونزلوا خيبر ودان لهم أهلها[1].

---

(١) الاكتفاء: جـ ١ ص ١١٢، ابن هشام: جـ ٣ ص ١١٠، السيرة الحلبية: جـ ٢ ص ٢٨٢، الطبري: جـ ٢ ص ٥٥٥.

« ماذا يفعلون ؟ نار مستعرة في صدورهم من الألم والغيظ تغشّيها طبيعة متأصلة في نفوسهم من الجبن والخور، وعاطفة عنيفة من البغض والعداوة، يخالطها إحساس عميق من الخوف والرهبة، ورغبة قوية في الانتقام والتَّشفي يدافعها شعور قوي من الإحجام والتَّردُّد ونزوع شديد إلى الحرب، يقابله حرص شديد على الحياة.

وكان لهم العذر في هذه الحيرة، فقد تلقوا من المسلمين ضربات شديدة الوقع، كانت تنزل على رؤوسهم كالصواعق، وعلمتهم التجارب أن عدوَّهم هذا مرهوب قوي الشكيمة، وأنه فوق ذلك مؤيَّد بقوة الحق، فليس من اليسير أن يغلبه غالب، ولا أن تهزمه قوة في الأرض مهما عَظُمَت، ولكنهم يريدون أن يطفئوا النيران المتأججة في صدورهم بالانتقام من هذا العدو الذي أذلهم وأرغمهم وفجعهم في خيرة أبنائهم من الرجال والأبطال، ومن الزعماء السَّادة »[1].

☆ ☆ ☆

« عَدَاوَتُهُ ـ والله ـ مَا بَقِيتُ » :

« عداوته ـ والله ـ ما بقيت »، عبارة قالها حُيَيّ بن أخطب منذ هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة المنوّرة، وأصبحت مبدأ استمسك

---

(١) صور من حياة الرسول : ص ٤٧٥ .

اليهود به . لذلـك قـال سلاّم بن مشكم - زعيم خيبر بعـد أسير بن رزام - بأن خطراً يتهـدد كيـان اليهود في الحجـاز ، ومن الواجب فوراً تشكيل حلف برئاسـة خيبر ، يضم يهود وادي القرى وتيماء وفـدك ، للزحف على يثرب ، دون الاعتماد على القبـائـل العربيـة »[1] ، « وقـد علم الرسـول بمـا يدور في خلد يهود خيبر ، فأخذ يتهيَّأ لقتالهم »[2] .

ويمكننا أن نجمل أسباب غزوة خيبر بما يلي :

١ً - العداوة المستمرة التي أعلنها حُيَيّ بن أخطب وتبنـاهـا سلاّم بن مشكم[3] .

٢ً - رجـوع النبي ﷺ من الحـديبيـة دون عمرة ، فظن اليهـود أن ضعفاً حلَّ بالمسلمين .

٣ً - اتصال اليهود بغطفان يحرضونهم على المسلمين مقابل بعض ثمـار خيبر وتمرها .

٤ً - الحلف المعقود برئاسة خيبر ، والذي أراد مداهمة المدينة .

٥ً - ولا يفـوتنـا أن يهـود بني النضير الـذين نـزلـوا خيبرهم الـذين هَيَّؤوا وحرضوا لغزوة الخنـدق ، فحيّي بن أخطب النضري ، وسلام بن

---

(١) باستثناء غطفان ، التي كانت تمثّل (الجنود المرتزقة) في عصرنا الحالي .

(٢) (تاريخ اليهود في بلاد العرب) لولفنسون .

(٣) قائـد يهود خيبر سلام بن مشكم ، المتوفى أثنـاء الحصـار ، فتولّى القيـادة بعـده الحـارث بن أبي زينب .

مشكم، وكنانة بن أبي الحُقَيق، وهَوْذَة بن قيس الوائلي، وأبو عامر الفاسق، هم الذين قدموا مكة على قريش، يدعونهم ويحرِّضونهم على حرب رسول الله ﷺ، إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله[1]. فقال لهم أبو سفيان: مرحباً وأهلاً، وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد.

والذين قالوا لقريش هذا، هم سادة اليهود، وزعماء خيبر وعلماؤها. فهم يمثِّلون قومهم كافة، فالعقاب العادل آن أوانه!

وهؤلاء النفر من اليهود أنفسهم ساروا إلى غَطَفان ودعوهم وحرَّضوهم على حرب رسول الله ﷺ، وقالوا لهم: إنّا سنكون معكم، وإن قريشاً قد بايعوهم على ذلك.

ولن ينتظر رسول الله ﷺ والمسلمون حتى يفاجئه اليهود (بزعامة خيبر) في المدينة.

وهدف غزوة خيبر: القضاء على تآمر اليهود وحلفهم المبرم ضد المسلمين، وإنهاء تأليبهم القبائل ضد رسول الله ﷺ.

☆ ☆ ☆

---

(١) راجع (الخندق: غزوة الأحزاب): ص ٦٥ وما بعدها.

المسير إلى خيبر:

عاد رسول الله ﷺ من الحديبية، فأقام في المدينة المنوَّرة حتى ختام سنة ست للهجرة، وفي المحرَّم سنة سبع خرج إلى خيبر بعد أن استنفر ﷺ من شهد الحديبية[1].

وجاءه ﷺ الأعراب المخلَّفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، فقال: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا»، ثم أمر ﷺ منادياً ينادي بذلك فنادى به[2].

وخيبر: على وزن جعفر، سُمِّيت باسم رجل من العماليق نزلها يقال له خيبر بن قانية بن مهلايل، وهو أخو يثرب الذي سميت باسمه المدينة.

والخيبر بلسان اليهود الحصن، وقيل لها خيابر لاشتمالها على

(١) ورد في أكثر من مصدر: «لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، مكث عشرين يوماً أو قريباً من ذلك ثم خرج إلى خيبر».

(٢) راجع: الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣١/أ، السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٣٤٤، السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٣٦. الطبري: جـ ٣ ص ٩، ابن سعد: جـ ٢ ص ١٠٦، الروض الأُنف: جـ ٤ ص ٢٣٣، ابن خلدون: جـ ٢ ص ٣٨، فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٦، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ١٨١، ابن هشام: جـ ٣ ص ٢١١، الكامل في التاريخ: جـ ٢ ص ١٤٧.

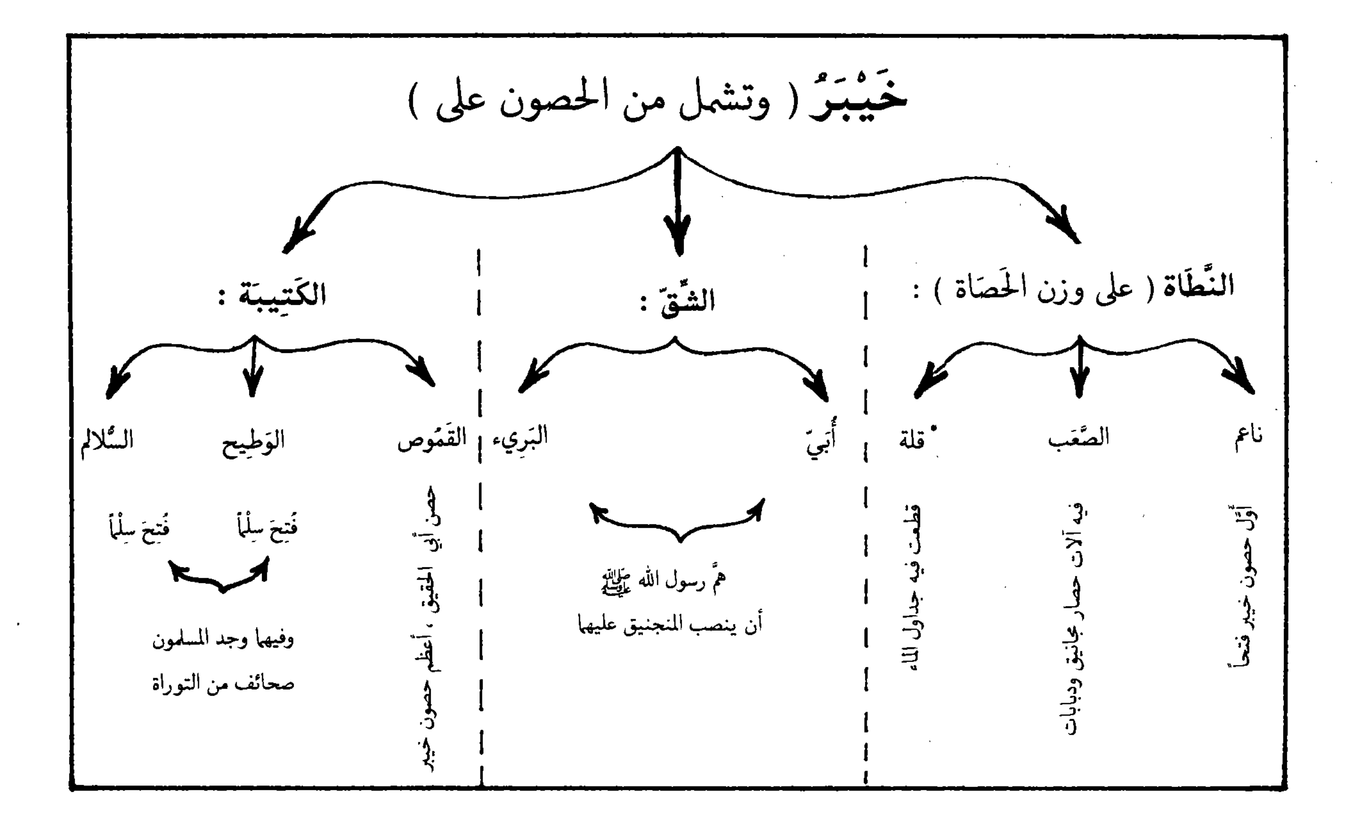
الحصون ، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثير[1] ، بينها وبين المدينة ثمانية برد[2] .



(١) جاء في (معجم البلدان) جـ ٢ ص ٤١١ : خيبر موصوفة بكثرة النخل والتمر ، قال حسَّان بن ثابت :

أَتَفْخَرُ بِالكَتَّانِ لَمَّا لبستَهُ ... وَقَد تلبسُ الأَنباطُ ريطاً مُقَصّرا
فلا تكُ كالعادي ، فأقبلْ نحرُه ... ولم تخشه سهماً من النَّبل مضمرا
فإنَّا ، ومن يهدي القصائد نحونا ... كَمُسْتَبْضِعٍ تَمْراً إلى أرضِ خَيْبرا

(٢) (بينها وبين المدينة ثمانية بُرد ، ومعلوم أن البريد أربعة فراسخ ، وكل فرسخ ثلاثة أميال . والبريد طول ثابت المقدار في الشريعة حُدِّد باثني عشر ميلاً ، أي بما يعادل بحساب الذراع الشرعية = ٢٢١٧٦ متراً ، ولما كانت خيبر تبعد عن المدينة ثمانية بُرد فيكون بعدها تماماً : ٢٢١٧٦ × ٨ = ١٧٧٤٠٨ م = ١٧٧,٤٠٨ كم . « راجع : كتاب الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان : ص ٧٧ » .



خَيْبَرُ (وتشمل من الحصون على)
النَّطَاة (على وزن الحَصَاة) :
ناعم
أوّل حصون خيبر فتحاً
الصَّعب
فيه آلات حصار مجانيق ودبابات
قلة
قطعت فيه جداول الماء
الشَّقّ :
أُبَيّ
البَرِيء
همَّ رسول الله ﷺ
أن ينصب المنجنيق عليهما
الكَتِيبَة :
القَمُوص
حصن أبي الحقيق ، أعظم حصون خيبر
الوَطِيح
فُتِحَ سِلْمَاً
السُّلالم
فُتِحَ سِلْمَاً
وفيهما وجد المسلمون
صحائف من التوراة

نُبُوءَةٌ نُخَاطِبُ اليومَ مِنْ خِلالِها العَقْلَ

☆ ﴿ لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَلامِنْ خَلْفِـــهِ تَنزِيــلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميد ﴾.

[فُصّلت/٤٢]

استخلف رسول الله ﷺ على المـدينـة المنـوَّرة نُمَيْلَـة بن عبـد الله الليثي[١]، وقيـل سِبــاع بن عُرْفُطَــة الغفــاري[٢]، ونرجِّـح الصحــابي «سِباع» للسبب التالي: حديث لأبي هريرة رضي الله عنه، جاء فيه: قَدِمَ المدينة في رهـط من قومـه ورسول الله ﷺ في خيبر وقـد استخلف سباع بن عرفطة على المدينة، قال أبو هريرة: فانتهيت إليـه وهو يقرأ في صلاة الصبح في الركعة الأولى: ﴿ كهيعص ﴾[٣] وفي الثانية: ﴿ ويل للمطففين ﴾[٤]، ثم انطلق أبو هريرة ومن معـه إلى خيبر، فوصلهـا وقـد فتح الله على نبيِّه.

---

(١) ابن هشـام: جـ ٣ ص ٢١١، ابن خلـدون: جـ ٢ ص ٣٨، عيـون الأثر: جـ ٢ ص ١٣٠، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ١٨١، السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٣٤٥.

(٢) الكامل في التـاريـخ: جـ ٢ ص ١٤٧، الطبري: جـ ٣ ص ٩، ابن سعـد: جـ ٢ ص ١٠٦، السيرة النبوية والآثار المحمـديـة: جـ ٢ ص ٢٣٣، السيرة الحلبيـة: جـ ٣ ص ٣٦، وفي أُسد الغابة: استعمل رسول الله ﷺ سِبـاع على المـدينـة لما خرج إلى خيبر، ثم ذكر حـديث أبي هريرة.

(٣) [مريم: ١].

(٤) [المطففين: ١].

وسـار رسول الله ﷺ ومعـه على أكبر تقـدير ١٦٠٠ مجـاهـد، وفي حصون خيبر ١٠٠٠٠ محارب.

سـار ﷺ إلى خيبر وهـو لا يملـك من وسـائـل ومعـدّات حصـار الحصون شيئاً، وخيبر ذات حصون منيعة قوية.

سار رسول الله ﷺ والمسلمون من حولـه في شهر آب ٦٢٨ للميلاد، حيث قيظ صيف الحجاز، ويهود خيبر في ظل ظليل[1]، ومياه وفيرة في قنوات تخترق حصونهم.

سـاروا بقيـادة رسول الله ﷺ وسلاحهم سيوف ورمـاح وسهـام، وزادهم ومؤونتهم قليلـة جـدّاً بسيطـة، ويهود خيبر بسـلاح وافر، وزاد وتموين وافر.

رغم هـذا التبـاين الواضـح، والفـارق الكبير الملمـوس بين القـوّتين اللّتين ستلتقيـان على أسوار خيبر، قرّر القرآن الكريم مسبقـاً من خلال آيات سورة الفتح، أن النصر حتماً وقطعاً للمسلمين:

﴿ لَقَـدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المـؤمنينَ إذ يُبَـايعُـونَـكَ تَحْتَ الشَّجْرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِم فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِم وَأَثابَهُم فتحاً قَرِيباً * وَمَغَـانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كثيرةً تأخُـذُونَهـا

(١) كان عدد نخيل خيبر أربعين ألف نخلة.

فَعَجَّلَ لَكُم هـذِهِ وَكَفَّ أَيـدِيَ النَّـاسِ عَنكُمْ وَلتكُونَ آيـةً للمُـؤمِنينَ وَيَهدِيكُم صِراطاً مُسْتَقِيماً ﴾[1] .

﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾[2] ، يعني فتح خيبر[3] .

لقد قرّر القرآن الكريم بعد صلح الحديبية مباشرة الفتحَ والنصرَ.

ولـو قـال القرآن الكريم هــذا والمسلمـون ١٠٠٠٠ رجـل ، واليهـود ١٦٠٠ رجل ، لقلنا ليس في الأمر كبير أهميّة .

ولو قال القرآن الكريم مـا قـالـه ، تقريراً لنتيجـة حـادثـة آتيـة ، وخيبر قرية بسيطة ، سيهبطون عليها هبوط النَّسْر على عصفور، لقلنـا إن النتيجة في مثل هذه الحالة لصالح المسلمين طبيعياً[4] .

ولكن عند المسير إلى خيبر قـال المنـافقون والأعراب (وهم على علم بطاقات الطرفين وقواهما المادية الظاهرية) : ما أمنع والله خيبر منكم ، لو رأيتم خيبر وحصونها ورجـالهـا لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون

---

(١) [الفتح : ١٨ و ١٩ و ٢٠] .

(٢) [الفتح : ٢٠] .

(٣) عيـون الأثر : جـ ٢ ص ١٣٧ ، فتـوح البلـدان للبـلاذري : ص ٣٨ ، ابن سعـد : جـ ٢ ص ١١٥ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٨١ .

(٤) ورد في السيرة الحلبيـة : جـ ٣ ص ٣٨ : « وإنهم كانـوا لا يظنـون أن رسـول الله ﷺ يغزوهم » .

شامخات في ذُرَى الجبال، والماء فيها واتِنٌ[1]، إن بخيبر لألف دارع، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلاَّ بهم، فأنتم تطيقون خيبر؟!؟ ما نرى لأحد بهم طاقة.

رغم هذه الظروف، «خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر مُسْتَنْجِزاً ميعاد ربِّه، وواثقاً بكفايته ونصره»[2]، بسبب البشرى التي زفّها القرآن الكريم في سورة الفتح: ﴿ وَأَثابَهُم فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرة يَأْخُذونَها ﴾[3]، لقد قرَّرت الآية مسبقاً أن الله سيفتح خيبر للمسلمين.

وكل آية في كتاب الله عز وجل هي وحي الله على قلب رسول الله ﷺ، فما هو موقف رسول الله ﷺ من نبوءة لو جاء المستقبل مناقضاً، أو على عكس ما ذكرت؟!؟

ولكن، بما أن القرآن الكريم ما قدَّم نبوءة إلا وجاء الواقع ليثبتها كما قرَّرها، فهذا يجعلنا أمام نتيجتين اثنتين:

أ ـ لو لم يكن محمد بن عبد الله رسول الله حقاً ويقيناً، لكان في غنى عن مثل هذه النبوءات التي لم تطلب منه، وهو في غنى أيضاً عن

---

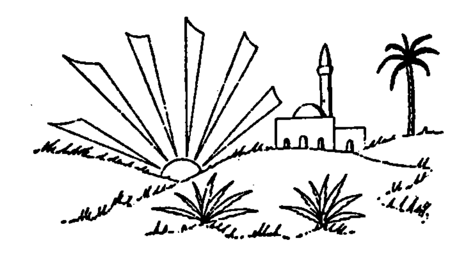
(1) واتِن: وَتَن الماءُ وغيره وُتُوناً وتِنَةً، أي دام ولم ينقطع، لسان العرب: جـ ١٣ ص ٤٤٢.

(2) الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣١.

(3) [الفتح: ١٨ و ١٩].

تساؤلات ومواقف حرجة لا بدّ واقعة، عندما يأتي المستقبل بما يناقض ما قاله.

٢ ـ أما وكل ما قاله القرآن الكريم جاء كما وصف، فنبوءات رسول الله ﷺ ليست من عنده، إنما هي وحي الله عز وجل، وهذا خطاب لعقولنا اليوم، أن القرآن الكريم كتاب فوق البشر، وفوق كل طاقات الإنسانية، إنه وحي الله عز وجل على قلب نبيه ﷺ، وهذا ما يجعل المسلم في كل عصر، في (طمأنينة) لسلامة نصِّ كتابه المقدَّس، ﴿لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميد﴾[1].



(١) [فصّلت: ٤٢].

من المدينة إلى خيبر

☆ «الله أكبر، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

رسول الله ﷺ

وعند خروج رسول الله ﷺ إلى خيبر[1]، أمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: من كان مضيفاً أو ضعيفاً أو مصعباً[2] فليرجع. فنادى بلال رضي الله عنه بذلك، فرجع عدد من الناس.

وارتحل مع الجيش رجل على بكر[3] صعب، فنفر به فصرعه، فاندقت فخذه، فلما جيء به إلى رسول الله ﷺ، قال: «ما شأن صاحبكم؟ وقال: يا بلال ما كنت أذَّنت في الناس من كان مصعباً فليرجع؟ قال: بلى، فلما مات الرجل أبى ﷺ أن يصلّي عليه، وأمر

---

(١) وخرجت معه ﷺ من نسائه أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) أي راكباً دابة صعبة.

(٣) البِكْرُ: الناقة التي ولدت بطناً واحداً، وبِكْرُها: ولدها، وأول ولد تلده الناقة فهو بِكْرٌ، لسان العرب: جـ ٤ ص ٧٨ و ٧٩.

بلالاً فنادى في الناس: الجنَّة لا تحل لعاص، وكرَّرها ثلاثاً».

وفي الطريق قال ﷺ لعامر بن الأكوع[1]: «انزل فحدثنا من هناتك[2]، انزل فحرِّك بنا الرِّكاب». فقال: يا رسول الله قد تولى قولي الشعر، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اسمع وأطع، فنزل عامر يرتجز:

والله لولا الله ما اهتدينا[3] ولا تصدقْنا ولا صلينا
إنا إذا قوم بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا
فأنزلن سكينة علينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا
فاغفر فداء لك ما اقتفينا[4] وألقين سكينة علينا
إنا إذا صيح بنا أَتَيْنَا وبالصياح عَوَّلوا علينا[5]

---

(١) وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، ابن هشام: جـ ٣ ص ٢١١.

(٢) هناتك: جمع هنة: كناية عن كل شيء لا تعرف اسمه، أو تعرفه، فتكني عنه، وأصل الهنة: هنهة وهنوة، قال الشاعر: على هنوات شأنها متتابع. وفي البخاري: «ألا تنزل فتسمعنا من هنيهاتك» مصغَّرة بالهاء، وإنما أراد ﷺ أن يحدو بهم من أراجيزه وشعره فالإبل تستحث بالحداء.

(٣) في السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٢ ص ٣٤٦: «لاهم لولا أنت ما اهتدينا».

(٤) أي فاغفر ما اكتسبنا، وأصل الاقتفاء الاتباع.

(٥) الأبيات مجموعة من عدة مصادر، راجع: الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣٣/أ، السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٣٧، السيرة النبوية والآثار المحمدية: جـ ٢ ص ٢٣٤، ابن سعد: جـ ٢ ص ١١١، الروض الأُنف: جـ ٤ ص ٥٦ و ٥٧، ابن هشام: جـ ٣ ص ٢١١، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ١٨٢، عيون الأثر: جـ ٢ ص ١٣٠.

فقال له رسول الله ﷺ عند إنشاده هذه الأبيات : « يرحمك ربك »[1] ، « يرحمك الله »[2] .

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : والله وجبت (أي الشهادة) ، يا رسول الله لولا (أي هلاَّ) أمتعتنا به ؟ أي أبقيته لنا لنتمتع به ، هلاَّ أخَّرت له الدعاء إلى وقت آخر ، لأنه ﷺ ما قال ذلك لأحد في مثل هذا الموطن إلا واستشهد ، فقتل رضي الله عنه في هذه الغزوة ، رجع إليه سيفه فقتله ، كان سيفه قصيراً ، فتناول به ساق يهودي ليضربه ، فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبة عامر فمات منه . فقال الناس : قتله سلاحه ، وهم يعنون : قتل نفسه فليس بشهيد . فقال سلمة بن الأكوع : يا رسول الله فداك أبي وأُمِّي زعموا أن عمي حبط عمله إذ قتل بسيفه ، فقال ﷺ : « كذب من قال ذاك ! بل له أجره مرتين[3] ، إنه لشهيد ، وإن له أجرين (وجمع بين أصبعيه) إنه لشهيد ، إنه لجَاهد[4] مجاهد » .

☆ ☆ ☆

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٣٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٨٢ .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٣/أ .

(٣) ابن سعد في طبقاته : جـ ٢ ص ١١١ .

(٤) الجاهد : الجادُّ في أمْرِهِ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٤٧ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣٠ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١١ .

فَصْمُ عُرَى التَّحالف بين غَطفان واليهود :

ونـزل رسـول الله ﷺ بـوادٍ يقـال لـه (الرَّجيـع)[1] ، بين خيبر وموطن غَطَفان ، فحـال بـذلـك بين غطفـان وبين أن يمـدُّوا أهل خيبر الذين كانوا لهم مظاهرين .

وخرجت غطفـان فعلاً لتمـدَّ يهود خيبر، على أن يكـون لغطفـان نصف تمر خيبر.

يقـول ابن كثير: «فبلغني أن غطفـان لمـا سمعـوا بـذلـك جمعـوا ثم خرجـوا يظـاهِرُون اليهـود عليـه ﷺ حتى إذا سـاروا منقلـة[2] سمعـوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حِسّاً ظنوا أن القوم ـ أي المسلمين ـ قد خـالفوا إليهم ، فرجعوا على أعقـابهم ، فـأقـامـوا في أمـوالهم وأهليهم ، وخلّـوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر»[3] .

---

(١) جاء في معجم البلـدان : جـ ٣ ص ٢٩ : « حين خرج ﷺ إلى خيبر سلك على عِصْرٍ فبنى لـه فيهـا مسجـداً ، ثم على الصهبـاء ، ثم أقبل حتى نـزل بـوادٍ يقـال لـه الرَّجيـع فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدُّوا أهل خيبر ، فعسكر به ، وكان يروح لقتـال خيبر منـه ، وخلَّف الثقـل بـالرجيـع والنســاء والجرحى ، وهــذا ـ أي الرجيـع ـ غير الأول ـ أي غـزوة الرجيع ـ لأن ذلك قرب الطائف ، وخيبر من ناحية الشام خمسـة أيـام من المـدينـة ، فيكون بين الرجيعين أكثر من خمسة عشر يوماً » .

(٢) المَنْقَلَةُ : المرحلة من مراحل السَّفر ، لسان العرب : جـ ١١ ص ٦٧٤ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٤٤ و ٣٤٥ .

لقد ألقى الله عز وجل في قلوبهم الخوف، فعادوا إلى ديارهم، وبذلك فَصَمَ رسولُ الله ﷺ عرى التحالف بين اليهود وغطفان. وضمن أيضاً عدم نصرة غطفان ليهود خيبر، عندها سار ﷺ بالمسلمين عند منتصف الليل، وحطَّ الجيش رحاله على حصون خيبر مع شروق الشمس.

☆ ☆ ☆

على مشارف خيبر:

وأشرف المسلمون على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير: «الله أكبر لا إله إلا الله»، فقال رسول الله ﷺ: «أَربعوا على أنفسكم[1]، لا تبالغوا في رفع أصواتكم فإنكم لا تدعون أَصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم».

قال عبد الله بن قيس رضي الله عنه: وكنت خلف دابته ﷺ، فسمعني أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فقال ﷺ: يا عبد الله بن قيس، فقلت: لبيك يا رسول الله، قال: ألا أَدلك على

---

(١) «ارفقوا بأنفسكم»، وفي حديث حليمة السَّعدية: «اربعي علينا»، أي ارفقي واقتصدي «لسان العرب: جـ ٨ ص ١١٠»، لقد كان ﷺ يأمر أصحابه يرفعون أصواتهم بالتلبية، فالمنهي عنه هنا الرفع الخارج عن العادة، الذي ربما آذى، بدليل قوله ﷺ: «اربعوا على أنفسكم»، أي ارفقوا بها.

كلمة من كنز الجنة ؟ قلت : بلى يا رسول الله فداك أبي وأمي ، قال ﷺ : لا حول ولا قوة إلا بالله »[1] .

ولما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر، وكان وقت الصبح ، قال لأصحابه : « قفوا ، ثم قال لهم : قولوا : اللهم ربَّ السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أَضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنَّا نسألك من خير هذه القرية ، وخير أَهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ أهلها وشرِّ ما فيها ، اقدموا بسم الله ، ادخلوا على بركة الله تعالى »[2] .

الحليف الدائم :

وأرسل عبد الله بن أُبي بن سلول ـ رأس المنافقين ـ إلى يهود خيبر يقول لهم : إن محمداً سائر إليكم فخذوا حذركم ، وأَدخلوا أموالكم إلى حصونكم ، واخرجوا إلى قتاله ولا تخافوا منه ، إن عددكم كثير، وقوم محمد شرذمة قليلون عُزَّل لا سلاح معهم إلا قليل[3] .

وكان أهل خيبر لما سمعوا ذلك يخرجون في كل يوم عشرة آلاف

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٣٨ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٤٠٤ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢١٤ .

(٢) ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٢ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣١ .

(٣) السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٣٦ .

مقاتل متسلّحين مستعدّين صفوفاً ، ثم يقولون : هيهات هيهات ، محمّد يغزونا ؟! هيهات هيهات[1] .

فلما كانت الليلة التي نزل رسول الله ﷺ صبحها بساحتهم ، لم يتحرّكوا تلك الليلة ، ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس ، فقاموا من نومهم وأفئدتهم تخفق ، وفتحوا حصونهم ، وغدوا إلى أعمالهم معهم الفؤوس والمساحي والمكاتل[2] ، فلما رأوا رسول الله ﷺ ولّوا هاربين ، وقالوا : محمد والخميس[3] ، جاء محمد وأهل يثرب .

فقال ﷺ : «الله أكبر ، خربت خيبر[4] إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين[5] ، وكرّرها ثلاثاً» .

وابتدأ ﷺ من حصون خيبر ، بحصون النَّطَاة ، وقيل : بحصون

---

(١) السيرةالنبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٣٥ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٣٩ .

(٢) المساحي : مجارف الحديد ، والمكاتل : جمع مكتل ، وهي القفّة العظيمة ، سُمّيت بذلك لتكتُّل الشيء فيها ، وهي تلاصق بعضه ببعض .

(٣) الخميس : الجيش العظيم ، وقيل له الخميس لأنه خمسة أقسام : المقدّمة والسّاقة والميمنة والميسرة ـ وهما الجناحان ـ والقلب .

(٤) قال ﷺ : « خربت خيبر » ، لأنه لما رأى آلة الهدم التي هي الفؤوس والمساحي تفاءل ﷺ بأن حصونهم ستخرب ، قال النووي : والأصح أنه أعلمه الله بذلك ، ويوافق ذلك ما في فتح الباري .

(٥) ابن سعد : جـ ٢ ص ١٠٦ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣١ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٤٨ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٢ .

الكَتِيبة لأنهم أدخلوا أموالهم وعيالهم في حصون الكتيبة، وجمعوا المقاتلة في حصون النَّطاة.

الحُبَاب بن المنذر:

قال الحُبَاب بن المنذر: يا رسول الله، إنك نزلت منزلك هذا فإن كان عن أَمر أُمرت به فلا نتكلم، وإن كان الرأي تكلَّمنا. فقال ﷺ: «هو الرأي»، فقال الحُبَاب: يا رسول الله إن أهل النَّطاة لي بهم معرفة، ليس قوم أبعد مدى سهم منهم، ولا أعدل رمية منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لانحطاط نبلهم، ولا نأمن من بياتهم يدخلون في حمرة النخل[1]، تَحَوَّل يا رسول الله، فقال ﷺ: «أشرت بالرأي، إذا أمسينا إن شاء الله تحوَّلنا»، ودعا ﷺ محمد بن مسلمة رضي الله عنه، فقال: «انظر لنا منزلاً بعيداً»، فطاف ابن مسلمة واستطلع المكان، ثم جاءَ رسولَ الله ﷺ وقال: وجدت لك منزلاً، فقال ﷺ: «على بركة الله»، وتحوَّل لما أمسى، وأمر الناس بالتحوُّل إلى مكان بعيد عن سهام أهل النَّطاة.

وبنى رسول الله ﷺ في المكان الذي تحوَّل إليه مسجداً صلى به طول مقامه بخيبر.

---

(١) النخل المجتمع بعضه على بعض.

للمناقشة :

ورد في كتب السيرة ما مفاده : ثم أمر ﷺ بقطع نخيل أهل حصون النَّطاة ، فوقع المسلمون في قطعها حتى قطعوا أربعمئة نخلة ، ثم نهاهم ﷺ عن القطع ، فما قطع من نخيل خيبر غيرها .

وورد أيضاً أن الحُبَاب بن المنذر قال : يا رسول الله ، إن اليهود ترى النخل أحبَّ إليهم من أبكار أولادهم ، فاقطع نخلهم ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل ، ووقع المسلمون في قطعها حتى أسرعوا في القطع ، فجاءه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، إنَّ الله عز وجل قد وعدكم خيبر ، وهو منجز ما وعدك ، فلا تقطع النخل ، فأمر منادياً فنادى رسول الله ﷺ فنهى عن قطع النخل[1] .

نرفض ما ورد على لسان الحُبَاب بن المنذر لسببين اثنين :

١ً ـ لأنه (ذو الرأي) ، وذو الرأي القويم السليم الثاقب في بدر وخيبر ، يستبعد كلياً أن يقدِّم رأياً فيه قطع شجر مثمر ، فهذا ليس من خلق المسلمين في حروبهم .

٢ً ـ لأن الخبر أورده الواقدي في مغازيه ، والواقدي ليس ثقة بين المؤرخين .

---

(١) الواقدي (المغازي): جـ ٢ ص ٦٤٤ .

ولكن النخل قُطِعَ ، فلماذا ؟

في رأينا جملة وردت في رأي الحُبَاب ، قالها عند التحوُّل إلى المكان الجديد قبالة حصن النَّطاة ، هي : « لا نأمن من بياتهم يدخلون في حمرة النخل » توضّح الأَمر ، لقد خشي الحُبَاب تَسَلُّل اليهود ليلاً إلى مواقع ومعسكر المسلمين خلال النخل الكثيف (المجتمع بعضه على بعض) ، فَقُطِعَ النخل الذي حول المعسكر الذي انتقى مكانه الحُبَاب بن المنذر ، كي لا يتسلَّل اليهود خلالها ، مستفيدين من كثافة النخل ، فيداهموا المسلمين في مواقعهم .

وفي رأينا أيضاً أن رسول الله ﷺ أمر بقطع بعض النخل لتحقيق ما سبق ذكره ، من كشف المكان ، ووضوح الرؤيا ، ومنعاً للتسلُّل ، فأسرع المسلمون في القطع ، مما جعل رسول الله ﷺ ينتبه إلى أن الذي أراده ليس هذا ، بل بعض النخل لتأمين سلامة المسلمين ومعسكرهم .

ولو كان القطع شرعة ، أو أسلوباً للضغط على اليهود ، لتكرَّر ذلك حول كل حصن ، وما أكثرها من حصون في خيبر .

هذا .. ولا ننسى أن موقفاً مشابهاً كان في غزوة بني النضير ، حين قطع المسلمون يومها ست نخلات فقط ، وكان النخل الذي قُطِعَ من النخل الذي لا يُؤْكَل ثَمَرُه ، ليحرج موقف بني النضير ، وليعلموا أن الأمر جد وليس هزلاً ، واستعراضاً لقوة المسلمين .

فما قطع من نخل قُبَالة حصن النَّطاة، قُطِع لأسباب أمنية وقائية بحتة، وفي سبيل تأمين سلامة الجيش يتساهل في قطع بعض النخل، لأننا أمام تحقيق أقل الضَّرَرَيْن، ولكن أسرع المسلمون في القطع، مما جعل رسول الله ﷺ يتنبَّه، فأوقف القطع، لأن الهدف المرجو، كان يمكن تحقيقه بقطع أقل.



فتح النطاة
ناعم - الصعب - قلة

☆ «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منا دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله».

رسول الله ﷺ لعليّ رضي الله عنه.

حصن ناعم:

وركّز المسلمون على حصن ناعم بالرمي. وهو أول حصن هاجمه المسلمون[1]. وعند هجوم المسلمين على حصن ناعم، أمر ﷺ بعض قواته في مشاغلة باقي الحصون منعاً للمدد والتعاون فيما بينها.

المُبَارَزَةُ:

وخرج مرحب ملك اليهود من حصنه، يخطر بسيفه ويقول:

---

(١) الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣١/أ.

قــد علمت خيبر أني مَرْحَبُ　　　　شَاكِي السِّلاحِ[1] بَطَلٌ مُجَرَّبُ
إذا الحروبُ أقبلت تَلَهَّبُ

فبرز له عامر بن الأكوع رضي الله عنه يقول :

قــد علمت خيبرُ أني عــامر　　　　شـاكي السِّلاحِ بطـل مقـامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب في ترس عامر ، ثم رجع إليه سيفه فقتله لما أراد ضرب ساق مرحب ، فجاءت ذبابته في ركبته فمات من ذلك كما مرَّ معنا[2] .

وقاتل رسول الله ﷺ أشد القتال ، وعليه درعان وبيضة ومغفر[3] ، وهو على فَرَس يقال له : الظرب ، وفي يده قناة[4] وترس ، ولم يقتل ﷺ أحداً ، إذ لو قَتَلَ أحداً لَذُكِرَ ، لأنَّه مما تتوفَّر الدواعي إلى نقله .

---

(١) شاكي السلاح : تام السلاح ، معروف بالشجاعة وقهر الفرسان ، وفي رواية : شاكٍ سلاحي .
(٢) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٣٨ .
(٣) البيضة : الخوذة من الحديد ، وغَفَره يغفره غفراً : ستره ، وكل شيء سترته فقد غفرته ، ومنه قيل للذي يكون تحت البيضة على الرأس : مِغْفَرٌ . لسان العرب : جـ ٥ ص ٢٥ .
(٤) القناة : الرمح ، وتجمع على قَنَوات وقُنِيٍّ وقِنَاء . مختار الصحاح : ص ٥٥٤ .

استشهاد محمود بن مسلمة :

ودفع رسول الله ﷺ لواءه لرجل من المهاجرين ، فرجع بعد قتال حول حصن ناعم ولم يصنع شيئاً .

وخرجت كتائب اليهود يتقدمها ياسر، فلم يفتح الله على المسلمين ، فأمسى رسول الله ﷺ مهموماً .

وفي ذلك اليوم استشهد محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة برحى[1] أُلقيت عليه من ذلك الحصن ، ألقاها عليه مرحب ـ وقيل : كنانة بن الربيع ـ لقد حارب محمود رضي الله عنه حتى أعياه الحربُ وثقلُ السلاح ، وكان الحر شديداً ، فانحاز إلى ظل ذلك الحصن ، فأُلقي عليه حجر الرحى فهشَّم البيضة على وجهه وندرت عينيه ، فأدركه المسلمون ، فأتوا به رسول الله ﷺ فسوَّى الجلدة إلى مكانها ، وعصبه بخرقة ، فمات رضي الله عنه من شدة الجراحة .

وجاء محمد بن مسلمة إلى رسول الله ﷺ فقال : إن اليهود قتلوا أخي ، فقال ﷺ : « لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية ، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموه فقولوا : اللّهم أنت ربنا

---

(١) الرَّحَى : معروفة وهي مؤنثة وتثنيتها رَحَيَان ، ومن مَدَّ قال : رَحَاء ورحاءان وأَرْحِية . مختار الصحاح : ص ٢٣٨ .

وربهم ، ونواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تقتلهم أنت ، ثم الزموا الأرض جلوساً فإذا غشوكم فانهضوا وكبّروا »[1] .

عَيْنٌ يبوح بما يدور في الحصون :

ومكث ﷺ سبعة أيام يقاتل أهل حصون النَّطاة ، يذهب والمسلمون إلى الحصون ، ويخلف على محل العسكر عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فإذا أمسى رجع ﷺ إلى المعسكر ، ومن جرح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحل ليداوى جرحه ، وكان ﷺ يناوب بين أصحابه في حراسة الليل . فلما كانت الليلة السادسة من السبع ، استعمل ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فطاف عمر بأصحابه حول المعسكر ، فأتى برجل من يهود خيبر في جوف الليل ، فأمر به عمر رضي الله عنه أن يضرب عنقه ـ وهذا هو حكم الجاسوس دولياً ـ فقال : اذهب بي إلى نبيِّكم حتى أُكلِّمه ، فسيق إلى رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ لليهودي : « ما وراءك ؟ » فقال : تؤمنني يا أبا القاسم ، فقال ﷺ : « نعم » ، فقال : خرجت من حصن النَّطاة من عند قوم يتسلَّلون من الحصن في هذه الليلة ، قال ﷺ : « فأين يذهبون ؟ » ، قال : إلى الشِّقّ ، يجعلون فيه ذراريهم ويتهيَّؤون للقتال[2] .

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٣٨ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٣ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣٢ .

(٢) المراد ما أبقوه من ذراريهم لأنهم أدخلوا أموالهم وعيالهم في حصون الكتيبة ، أو أن ذلك المخبر أخبر بحسب ما فهم ، والحال أنهم إنما يذهبون ليجعلوا ذراريهم في حصون الكتيبة .

وقـال العين : في حصن الصَّعب بيت فيـه تحت الأرض منجنيق[1] ودبابات[2] ودروع وسيوف ، فإذا دخلت الحصن غـداً ، قـال ﷺ : « إن شاء الله » ، فقال اليهودي : إن شاء الله ، أوقفتك عليه ، فـإنـه لا يعرفـه غيري ، وأُخرى ، قيل له : مـا هي ؟ قـال : يُستخرج المنجنيق ويُنصب على حصن الشِّقّ ، ويـدخـل الرجـال تحت الـدبـابـات فيحفروا الحصن فتفتحه من يومك ، وكذلك تفعل بحصون الكتيبة .

ثم قـال العين : يـا أبـا القـاسم ، احقن دمي ، قـال ﷺ : « أنت آمن » ، قال : ولي زوجـة فهبهـا لي ، قـال ﷺ : « هي لـك » ، ثم دعـاه ﷺ إلى الإسلام ، فقال : أنظرني أياماً . ثم قال رسول الله ﷺ لمحمد بن مسلمـة رضي الله عنـه : « لأُعطين الرايـة إلى رجـل يحبُّ الله ورسـولـه ويحبَّانه ، لا يولي الدُّبر ، يفتح الله عز وجل على يـده ، فيمكِّنـه الله من قاتل أخيك » ، وعند ذلك لم يكن من الصحابة أَحد له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا يرجو أن يُعْطَاها .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قـال : مـا أحببت الإمـارة إلا ذلك اليوم .

---

(١) المنجنيق : آلة من آلات الحرب ، تُرمى بها الحجارة ـ وهي معرَّبـة وأصلها فـارسيـة ـ ، وهي مؤنثة تجمع على منجنيقات ومجانيق ، مختار الصحاح : ص ١٠٦ .

(٢) الدبابة : آلة من آلات الحرب يـدخل فيهـا الرِّجـال فيـدبُّون بهـا إلى الأسوار لينقبوهـا . ومن الملاحظ في غزوة خيبر : افتقار المسلمين إلى أدوات الحصار .

وقال علي رضي الله عنه لما بلغه مقالة رسول الله ﷺ : اللّهم لا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت[1] .

علي بن أبي طالب يستلم اللواء :

بعث ﷺ إلى علي رضي الله عنه، وكان أرمد شديد الرَّمد، فعقد له ﷺ اللواء .

فقال علي رضي الله عنه : إني أرمد كما ترى، لا أُبصر موضع قدمي . فجعل ﷺ من ريقه في عين علي بعد أن جعل رأسه في حجره، فبرأ حتى كأن لم يكن بهما وجع . يقول علي رضي الله عنه : فما رمدت بعد يومئذ، فما رمدت ولا صدعت، فما اشتكيتهما حتى الساعة[2] .

وقال علي رضي الله عنه : عَلامَ أُقاتلهم يا رسول الله ؟ يا رسول الله أُقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟

فقال رسول الله ﷺ : « انفذ على رسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقٍّ الله تعالى فيه، فوالله

---

(١) الطبري : جـ ٣ ص ١٢، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٣٩، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٥١ و ٣٥٢، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣٢، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٣٨ و ٣٩، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٨٥ .

(٢) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٤٢، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٦، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٤٠، ابن سعد : جـ ٢ ص ١١٠ .

لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعم[١] »، وفي رواية أُخرى : « اذهب فقاتلهم حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت »، فقال علي رضي الله عنه : على ما أُقاتل الناس ؟ قال ﷺ : « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منا دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله[٢] ».

فخرج علي رضي الله عنه وقد ألبسه رسول الله ﷺ درعه الحديد ، وشدَّ ذا الفقار، خرج بالراية يَأْنح[٣] ويهرول هرولة[٤] ، حتى ركز رايته في رَضْم[٥] من حجارة تحت الحصن .

عَلَوْتُم وما أُنزل الله على موسى :

ركز علي رضي الله عنه الراية تحت الحصن ، فاطلع عليه يهودي من أعلى الحصن ، فقال : من أنت ؟ فقال علي رضي الله عنه : علي بن أبي

---

(١) أي تتصدَّق بها في سبيل الله .

(٢) أي حساب بواطنهم وسرائرهم على الله لأنه المطَّلع وحده على ما فيها من إيمان خالص أو نفاق وكفر .

(٣) يأنح من الأنيح وهو علو النفس .

(٤) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٥٣ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٦ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٨٦ .

(٥) الرضم : حجارة بعضها فوق بعض من غير بناء .

طالب . فقال اليهودي : علوتم وما أنزل الله على موسى[1] .

وكان أول من خرج من اليهود الحرث ـ أخو مرحب ـ وكان معروفاً بالشجاعة ، فثبت له علي رضي الله عنه فتضاربا ، فقتله علي ، وانهزم اليهود إلى الحصن .

ثم خرج مرحب لما رأى أن أخاه الحرث قد قتل وهو يقول :

قد عَلِمتْ خيبرُ أنّي مَرْحَبُ شاكِي السِّلاح[2] بَطَلٌ مُجَرَّبُ
أَطْعَنُ أَحْيَاناً وَحِيناً أَضْرِبُ إذا اللُّيوثُ أَقْبَلَت تَلَهَّبُ[3]
إن حِمايَ لَلْحِمى لا يُقْرَبُ يُحْجِمُ عَنْ صَوْلَتِي المجَرَّبُ[4]

وقال : هل من مبارز ؟

---

(١) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٤٩ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣٥ ، وفي البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٨٦ : « غلبتم وما أنزل الله على موسى » .

(٢) في السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٥٦ : « شاكٍ سلاحي » .

(٣) في الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٢/أ : « إذا الليوث أقبلت تَحَرَّبُ » وكذلك في الطبري : جـ ٣ ص ١٠ . وتحرّب : أي أقبلت مغضبة .

(٤) الأبيات من عدة مصادر : الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٤٨ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٥٦ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٨٨ و ١٨٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ١٠ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٤٤ . وكان كعب بن مالك ممن أرادوا الخروج لمرحب فقال :

قد علمت خيبر أني كعبُ مفرِّجُ الغماء جَرْيٌ صلبُ
إن شبَّت الحربُ وثار الحربُ معي حُسامٌ كالعقيق عَضْبُ
يطأكمو حتى يَذِلَّ الصعبُ بكفّ ماضٍ ليس فيه عَيْبُ

فقال رسول الله ﷺ : « من لهذا ؟ » .

قال محمد بن مسلمة رضي الله عنه : أنا له يا رسول الله ، أنا الموتور الذي قتل له قتيل فلم يؤخذ بثأره ، قتل أخي بالأمس .

فقال ﷺ : « فقم إليه ، اللهم أعنه عليه » .

فلما دنا أحدهما من صاحبه ، دخلت بينهما شجرة عُمْرِيَّة[1] من شجر العُشَر[2] المَسْد[3] ، فجعل كل واحد منهما يلوذ من صاحبه بها كلما لاذَ بها أحدهما اقتطع بسيفه ما دونه ، حتى برز كلٌّ واحد منهما لصاحبه وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فَنَنٌ[4] ، ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فضربه فاتقاه بالدَّرْقة[5] ، فوقع سيفه فيها فعضَّتْ به ، فضرب محمد بن مسلمة مرحباً فقطع رجليه ، وهو يرتجز :

قد علمتْ خيبرُ أني ماضٍ حلوٌ إذا شئتَ وسَمٌّ قاضٍ

فقال مرحب لمحمد بن مسلمة : أجهز عَلَيَّ ، فقال ابن مسلمة : لا ،

---

(١) عُمْرِيَّة : الشجرة العظيمة القديمة ، التي أتى عليها عمر طويل .

(٢) العُشَر : شجر له صمغ يقال له سُكر العُشَر ، وهو شجر أملس ضعيف العود لم يقتدح الناس في أجود منه .

(٣) المَسْد : الشديد الفتل .

(٤) الفَنَنُ : الغُصْن وجمعه الأَفْنَان ثم الأفانين ، مختار الصحاح : ص ٥١٣ .

(٥) الدَّرقة : الحَجَفَةَ ، التُّرس إذا كان من جلود ليس فيه خشب ، مختار الصحاح : ص ١٢٤ .

ذق الموت كما ذاقه محمود بن مسلمة . فمرَّ به علي رضي الله عنه وقطع رأسه فاختصما في سلبه إلى رسول الله ﷺ فأعطى رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة سيفه ورمحه ومغفره وبيضته ، وكان مكتوباً على سيفه :

هـــــــذا سيفُ مَرْحَبْ من يـــــذقــــه يَعْطَبْ[1]

ثم خرج أخوه ياسر وهو يرتجز بقوله :

قـــد عَلِمَتْ خيبرُ أنّي يـــاسِرُ شـــاكي السِّـلاحِ بَطَـلٌ مُغَـاوِرُ

---

(١) وقيل قاتل مرحب علي رضي الله عنه ، وبه جزم مسلم في صحيحه . وقال ابن الأثير : الصحيح الذي عليه أهل السِّيَر والحديث أن علياً قاتله ، وفي الاستيعاب : والصحيح الذي عليه أهل السِّير والحديث أن علياً قاتله ، ويروى أن علياً رضي الله عنه لما خرج إليه ارتجز بقوله :

أنـا الـذي سَمَّتني أُمي حَيْـدَرَة ضرغـام آجـام وليث قَسْـوَرَة
أضرب بـالسَّيف رؤوس الكفرة أكيلهم بـالصـاع كيلَ السَّنْدَرَة

والسَّنْدَرَة : مكيال كبير غرّاف جرّاف ، قصد أقتلكم قتلاً واسعاً ذريعاً .

إن أم علي سمّته أسداً باسم أبيها ، وكان أبوه أبو طالب غائباً ، فلما قدم كره ذلك وسماه علياً ، ومن أسماء الأسد حيدرة ، والحيدرة الغليظ القوي ، وقيل لُقِّب بذلك في صغره لأنه كان عظيم البطن ممتلئاً لحماً ، ومن كان كذلك يقال له حيدرة . وقيل بل هو إلهام من علي ، فإن مرحباً كان رأى في تلك الليلة في المنام أن أسداً افترسه ، فذكّره علي بذلك ليخيفه ويضعف نفسه .

ويمكن الجمع بين الروايتين : قطع محمد بن مسلمة رجلي مرحب ، ومر به علي فضرب عنقه وأخذ سلبه ، فاختصما إلى رسول الله ﷺ في سلبه ، فقال ابن مسلمة : يا رسول الله ما قطعت رجليه وتركته إلا ليذوق الموت ، وكنت قادراً أن أجهز عليه ، فقال علي رضي الله عنه : صدق وأعطى سلبه لمحمد بن مسلمة .

إذا اللُّيُوثُ أَقْبَلَتْ تُبَادِرُ وَأَحْجَمَتْ عَنْ صَوْلَتِي المَغَاوِرُ
إنَّ حِمَايَ فيه مَوْتٌ حَاضِرُ[1]

وكان من مشاهير فرسان يهود وشجعانهم ، وقال : هل من مبارز ؟ فخرج له الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وهو يرتجز :

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي زَبَّارْ[2] قَرْمٌ[3] لقوم غَيْرِ نِكْسٍ فَرَّارْ
ابنُ حُمَاةَ المَجْدِ وابنُ الأخيارْ يَاسِرُ لا يَغْرُرْكَ جَمْعُ الكُفَّارْ
فَجَمْعُهُم مثل السَّرابِ الجَرَّارْ[4]

قالت أُمُّه صفيَّة بنت عبد المطلب ـ عمَّة رسول الله ﷺ ـ : يا رسول الله ، إنه يقتل ابني ؟ فقال ﷺ : « بل ابنك يقتله إن شاء الله » ، فقتله الزبير رضي الله عنه ، فقال له ﷺ : « فداك عم وخال ، لكل نبي حواري (أي ناصر) وحواريّ الزبير» .

---

(١) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٤٩ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٤٤ ، والأبيات من الطبري : جـ ٣ ص ١١ .

(٢) زبار : من الزبر وهو القوة والمنعة .

(٣) المُقْرَم : البعير المكرم لا يحمل عليه ولا يُذَلَّل ، ولكن يكون للفحلة ، وكذا القَرْم ومنه قيل للسَّيِّد قَرْم ومُقْرَم تشبيهاً به ، مختار الصحاح : ص ٥٣١ و ٥٣٢ .

(٤) الأبيات رواية الطبري : جـ ٣ ص ١١ ، والخبر في الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٢/أ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٥٩ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣٤ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٦ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٤٥ .

وقيل للزبير: والله إن كان سيفك يومئذ صارماً، قال: والله ما كان بصارم، ولكني أكرهته.

الرَّاعِي: يَسَار العَبْد الأَسْوَد:

كان أجيراً لرجل من اليهود يرعى له غنمه[1]، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السِّلاح سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي، فأقبل بغنمه حتى جاء رسول الله ﷺ فقال: إلى ما تدعو؟ فقال ﷺ: «أدعوك إلى الإسلام، إلى أن تشهد أن لا إلهَ إلا الله وأني رسول الله، وألاّ تعبد إلا الله» فقال الراعي: فماذا يكون لي إن شهدت بذلك وآمنت بالله؟ قال ﷺ: «الجنة إن مِتَّ على ذلك»، فأسلم، فقال: يا نبي الله إن هذا الغنم عندي أمانة، فقال ﷺ: «أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصا، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك» ففعل، فرجعت الغنم إلى صاحبها مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن. فعرف اليهودي أن غلامه قد أسلم.

---

(١) في السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٤٥: «وكان عبداً حبشياً يسمّى أسلم»، راجع خبره في: الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣٣/أ، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ١٩٠، عيون الأثر: جـ ٢ ص ١٤٢، السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٣٦١، ابن هشام: جـ ٣ ص ٢٢٢، ابن سعد: جـ ٢ ص ١٠٧.

ثم تقدم يسار فقاتل مع المسلمين فأصابه سهم غَرب[1] فقتله ولم يسجد لله سجدة، فأُتي به إلى رسول الله ﷺ، فقال: «لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير، وقد كان الإسلام من نفسه حقاً»[2].

لقد كان ﷺ لا يحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ليعرفه عليه[3].

وعلى باب حصن ناعم تناول علي رضي الله عنه باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن، ثم ألقاه من يده وراءه ثمانين شبراً، فجهد سبعة أو ثمانية نفر على أن يقلبوا ذلك الباب فلم يقدروا[4].

وكان فتح حصن ناعم أول حصون خيبر فتحاً.



(١) سهم غرب: وهو ما لا يعرف راميه.

(٢) السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٤٦، السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٣٦١، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ١٩١.

(٣) الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣٣/ب.

(٤) الخبر في: الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣٢/ب، السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٣٥٩، الطبري: جـ ٣ ص ١٣، ابن هشام: جـ ٣ ص ٢١٦، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ١٨٩، السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٤٣. وقيل في هذا الخبر انقطاع، وسبب ذلك المغالاة التي تبعت الخبر، حيث ورد: لم يقدر على حمله أربعون رجلاً، وقيل سبعون. وقيل بل حمل علي الباب على ظهره حتى صعد المسلمون عليه ودخلوا الحصن.

إتمام فتح النطاة

فتح حصن الصعب وحصن قلة

*« اللّهم إنّك قد عرفت حالهم ، وأنْ ليست لهم قوّة ، وأنْ ليس بيدي شيء أُعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غَناءً ، وأكثرها طعاماً وودَكاً » .

رسول الله ﷺ

وأَرسلت أَسْلَم إلى رسول الله ﷺ وفداً فيه أَسماء بن حارثة وامرأته ، فقال أسماء : إن أسلم يقرؤونك السَّلام ، ويقولون أجهدنا الجوع[1] . فلامهم رجل وقال : مِنْ بين العرب تصنعون هذا ؟ فقال زيد بن حارثة أخو أسماء : والله إني لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله ﷺ مفتاح الخير[2] .

---

(١) بسبب مجاعة أصابت المسلمين في صيف ٦٢٨ م .

(٢) راجع السيرة الحلبية ، جـ ٣ ص ٤٦ ، عيون الأثر ، جـ ٢ ص ١٣٤ ، ابن هشام ، جـ ٣ ص ٢١٤ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية ، جـ ٢ ص ٢٤٧ و ٢٤٨ .

فدعا رسول الله ﷺ فقال : « اللَّهم إنَّك قد عرفت حالهم ، وأنْ ليست لهم قوَّة ، وأنْ ليس بيدي شيء أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غَناءً ، وأكثرها طعاماً ووَدَكاً[1] » .

ودفع ﷺ اللواء للحُبَاب بن المنذر رضي الله عنه ، وندب الناس ، وكان من سَلِمَ من يهود حصن الناعم انتقل إلى حصن الصَّعب من حصون النَّطاة . وفيه خمسمئة مقاتل . وخرج منه رجل يقال له يوشع مبارزاً ، فخرج له الحُبَاب بن المنذر فقتله ، وخرج آخر مبارزاً يقال له الدبال ، فبرز له عمارة بن عقبة الغفاري رضي الله عنه فضربه على هامته فقتله ، وقال له : خذها وأنا الغلام الغفاري ، فقال الناس : حبط جهاده ، فقال ﷺ لما بلغه ذلك : « يؤجر ويحمد » .

وحمل اليهود حملة منكرة ، فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ ، وثبت الحُبَاب بن المنذر رضي الله عنه ، فحرض ﷺ المسلمين على الجهاد ، فأقبلوا وزحف بهم الحُبَاب ، فانهزم اليهود وأغلقوا الحصون عليهم . ثم اقتحم المسلمون الحصن[2] ، فوجدوا في حصن الصَّعب من الشَّعير والتمر والسَّمن والعسل والسكَّر والزيت والودك شيئاً كثيراً .

---

(١) الوَدَكُ : دَسَم اللَّحم ، ودجاجة وَدِيكَةٌ أي سمينة ، مختار الصحاح ص ٧١٥ .

(٢) بعد حصار دام يومين .

ونـادى منـادي رسول الله ﷺ « كلوا واعلفوا ولا تحملـوا ، أي لا تخرجوا به إلى بلادكم » .

وفي هذا الحصن وجد المسلمون آلة حرب دبابات ومنجنيقاً .

☆ ☆ ☆

فتح حصن قلة :

وهو آخر حصون النَّطـاة . حـاصره المسلمون ثلاثـة أيـام . فجـاء رجل من اليهود وقـال لرسول الله ﷺ : يـا أبـا القـاسم تـؤمِّني على أن أدلك على ما تستريح به ، فإنَّك لو مكثت شهراً لا تقـدر على فتح هـذا الحصن ، فـإن بـه دُبُولاً[1] تحت الأرض يخرجون ليلاً فيشربـون منهـا ، فإن قطعت عنهم شربهم أهلكتهم .

وفي رواية : يا أبا القاسم تؤمني على أن أدلـك على مـا تستريح بـه من أهل النَّطـاة[2] ، وتخرج إلى أهل الشِّقّ ، فـإن أهل الشِّق قـد هلكوا رعباً منك .

فأمَّنه رسول الله ﷺ على أهله ومالـه ، وأمر بقطع جـداول المـاء

(١) الدُّبول : الجداول ، الأنهر الصغيرة .

(٢) أي ينهي حصون النَّطـاة ومـا تبقّى منهـا وهـو حصن قلـة ، وحصـون النَّطـاة هي : نـاعم ، الصَّعب ، قلة .

عن حصن قلة ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، واستشهد من المسلمين يومئذ نفر ، وأصيب من اليهود عشرة ، وافتتح المسلمون آخر حصون النَّطاة ، وتحوَّلوا إلى الشِّقّ ، وكان به حصون ذوات عدد ، فكان أول حصن بدؤوا به منها ، حصن أُبَيّ .

☆ ☆ ☆

فتح حصني أُبَيّ والبريء (حصون الشِّقّ) :

وعند سور حصن أُبَيّ خرج رجل يقال له غزوال ـ أو عزال[1] ـ يدعو إلى البراز ، فبرز له الحُباب بن المنذر رضي الله عنه وحمل عليه فقطع يده اليمنى ونصف الذراع ، فبادر راجعاً منهزماً إلى الحصن ، فتبعه الحُبَاب فقطع عرقوبه فذفف[2] عليه .

وخرج آخر يطلب البراز ، فخرج له أبو دجانة رضي الله عنه فضربه أبو دجانة فقطع رجله ثم ذفف عليه ، وعند ذلك أحجم اليهود عن البراز ، فكبَّر المسلمون ، وتحاملوا على الحصن ، ودخلوه يتقدَّمهم أبو دجانة رضي الله عنه ، فهرب من كان فيه ولحق بحصن البريء ،

---

(١) في البداية والنهاية ، جـ ٤ ص ١٩٨ « عزال » ، وفي السيرة الحلبية ، جـ ٣ ص ٤٧ « غزوال » .

(٢) ذفَّف : تذفيف الجريح : الإجهاز عليه وإتمام قتله ، وذَفْذَفْتُ على الجريح تذفيفاً ، إذا أسرعت قتله ، لسان العرب ، جـ ٩ ص ١١٠ .

وهو الحصن الثاني من حصني الشِّقّ ، فتمنعوا به أشد التمنُّع ، وكان أهله أشد رمياً للمسلمين بالنبل والحجارة حتى أصاب النبل ثياب رسول الله ﷺ وعلقت به .

ولم يستخدم المسلمون في فتح هذا الحصن المنجنيق الذي وجدوه في حصن الصَّعب ، فالمنجنيق لم يستخدم إلا في غزوة الطائف . ولكن وردت عبارة في البداية والنهاية تقول : « حتى هَمَّ رسول الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم »[1] ، وهذا يؤكد عدم استعماله هنا .



---

(1) البداية والنهاية ، جـ ٤ ص ١٩٩ .

فتح حصون الكتيبة

القَمُوص ـ الوَطِيح ـ السَّلالِم

***« نعم ، صدق الله فصدقه ، اللَّهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك ، قُتِل شهيداً ، وأنا عليه شهيد » .**

محمد رسول الله ﷺ

ودخل من سَلِم من اليهود حصون الكتيبة ، وهي ثلاثة حصون : القموص والوطِيح والسُّلالم ، وكان أعظم حصون خيبر القموص ، وكان منيعاً ، حاصره المسلمون عشرين ليلة ، ثم فتحه الله عز وجل على يد علي رضي الله عنه ، ومنه سُبِيَت صَفِيَّة ، وكان اسمها زينب ، فلما صارت من الصَّفِي[1] ، سميت صفيَّة .

ثم حاصر المسلمون حصن الوطيح[2] وحصن

---

(١) الصفي : ما كان يصطفيه ﷺ لنفسه من الغنيمة قبل أن تُقْسَم .

(٢) الوطيح : من الوطح ، وهو في الأصل ما تعلق بمخالب الطير من الطين ، سمي الوطيح باسم الوطيح بن مازن ، رجل من ثمود .

السُّلالم[1] وهو حصن بني الحقيق ، ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوماً ، فهمَّ ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة ، سألوا رسول الله ﷺ الصلح على حقن دماء المقاتلة ، وترك الذُّرِيَّة لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، فصالحهم على ذلك ، وعلى أن ذمة الله ورسوله بريئة منهم أن يكتموه شيئاً من متاعهم يسألهم عنه .

وبذلك .. فتحت حصون خيبر كلها عنوة إلا الوطيح والسُّلالم فتحا صلحاً ، فكانا فيئاً لرسول الله ﷺ[2] .

التَّسَامُحُ سِمَةُ الإسلام أبداً :

وجد المسلمون في الوطيح والسُّلالم مئة درع ، وأربعمئة سيف ، وألف رمح ، وخمسمئة قوس عربية بجعابها .

ووجدوا صحائف متعدِّدة من التوراة ، فجاء اليهود يطلبونها ، فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم .

يقول ولفنسون بشأن الصحف المتعدِّدة من التوراة ، فجاءت يهود تطلبها ، فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم :

---

(١) ويقال له أيضاً : سَلالم والسلاليم ، والأصح السُّلالم .

(٢) الفيء : ما أُجلي عنه العدو من غير مقاتلة ، أو الفيء ما صُولح عليه أهل بلد من الكفار .

« ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية ، ممَّا جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان ، ويحفظون لـه هـذه اليد حيث لم يتعرَّض بسوء لصحفهم المقـدسـة ، ويـذكرون بـإزاء ذلـك مـا فعلـه الرومـان حيث تغلَّبـوا على أورشليم وفتحـوهـا سنـة ٧٠م ، إذ أحرقوا الكتب المقدَّسة ، وداسوهـا بـأرجلهم ، ومـا فعلـه المتعصّبون من النصـارى في حروب اليهـود في الأنـدلس ، حيث أحرقـوا أيضـاً صحف التوراة ، هـذا هو البون الشـاسع بين الفـاتحين ممن ذكرنـاهم وبين رسول الإسلام »[1] .

وهـذا التسـامح سبقـه تسـامح آخر عنـدمـا ترك صحـائف اليهود المقـدَّسـة ، ولم يتعرَّض لهـا بسوء ، ولم ينظر لهـا نظرة غير طبيعيـة ، مع شدَّة عداوة اليهود للمسلمين ، فقد سمح لبني النضير بعد غزوة أُحُد بحمل صحفهم عند جلائهم عن المدينة المنوَّرة .



« هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها » :

وغيَّب اليهود الجلـد الـذي كان فيـه حلي بني النضير وعقـود الـدر والجوهر الذي جلوا بـه ، لقـد خرج سلام بن أبي الحقيق وهو يحمل هـذا

(١) تاريخ اليهود ببلاد العرب : ص ١٧٠ .

الكنز العظيم ، وسار من المدينة إلى خيبر وهو يقول بأعلى صوته : هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها .

فقال رسول الله ﷺ لسعية بن عمرو، وهو عم حُيَيّ بن أخطب ، وفي لفظ لسعية بن سلام بن أبي الحقيق ، وفي رواية : وسأل ﷺ كنانة بن أبي الحقيق : «أينَ مسك حُيَيّ بن أخطب[1] ؟ » فقال : أذهبته الحرب والنفقات ، فدفع رسول الله ﷺ سعية بن عمرو للزبير بن العوام فمسَّه بعذاب ، فقال : رأيت حيياً يطوف في خربة ههنا[2] ، فذهبوا إلى الخربة ففتشوها فوجدوا ذلك الجلد[3] .

وأحضر ﷺ كنانة وهو زوج صفيَّة تزوجها بعد أن طلَّقها سلام بن مشكم ، وبالربيع أخوه ، فقال لهما رسول الله ﷺ : «أين آنيتكما التي كنتم تعيرونها أهل مكة ؟ » ، لأن أعيان مكة إذا كان لأحدهم عرس يرسلون فيستعيرون من ذلك الحلي ، والآنية والكنز عبارة عن حلي كان

---

(١) نُسِبَ إليه الجلد فقيل : كنز حي لأن حيياً كان عظيم بني النضير ، وإلا فهو لا يكون إلا عند بني الحقيق ، والمسك : الجلد .

(٢) « إني قد رأيت كنانة يُطِيفُ بهذه الخَرِبَة كل غداة » .

(٣) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٤٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ١٤ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣٨ ، فتوح البلدان للبلاذري : ص ٤٠ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٧ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٧٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٩٨ .

أولاً في جلد شاة ، ثم كان لكثرتـه في جلـد ثور ، ثم كان لكثرتـه في جلـد بعير كما تقدَّم ، فقالا : أذهبته النفقات والحروب ، فقال رسول الله ﷺ : « العهد قريب والمال أكثر من ذلـك ، إنكمـا إن كتمتمـاني شيئـاً فـاطلعت عليه استحللت دماءكما وذراريكما » ، فقالا : نعم .

وفي رواية قـال ﷺ : « أرأيت إن وجـدنـاه عنـدك ، أأقتلـك ؟ » قال : نعم .

وأعلم الله عز وجل رسوله الكريم بموضع ذلـك الحلي ، فقـال لرجل من الأنصار : « اذهب إلى محل كـذا وكـذا ، ثم ائت النخل فـانظر نخلـة عن يمينك ـ أو قال عن يسـارك ـ مرفوعـة فـائتني بمـا فيهـا » ، فـانطلق فجاءه بـالآنيـة ، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحقيق ، وأحـدهمـا زوج صفيَّـة بنت حُيَيّ بن أخطب ، وسبى رسول الله ﷺ نسـاءهم وذراريهم ، وقسَّم أموالهم بـالنكث الـذي نكثوا ، جـاء في فتـوح البلـدان : « على أن لا يكتموا كنزاً ، فكتموه ، فاستحل دماءهم » .

☆ ☆ ☆

للفارس ثلاثة أَسهم وللراجل سهمٌ :

وأراد رسول الله ﷺ إجلاء يهود خيبر ، فقالوا : يا محمد دَعْنـا نكن في هـذه الأرض نصلحهـا ونقم عليهـا ، (ولم يكن لرسـول الله ﷺ ولا

لأصحابه غلال يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطْر من كل زرع ونخيل وشيء، ما بدا لرسول الله ﷺ)[1].

قال الزهري: «خمّس رسول الله ﷺ خيبرَ، ثم قسم سائرها على من شهدها». وفيما قاله الزهري نظر، فإن الصحيح أن خيبر لم تقسَّم، وإنما قُسم نصفها بين الناس[2].

«فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وعزل النصف الثاني لمن نزل به من الوفود والأُمور ونوائب الناس[3]».

قال ابن إسحاق: «وكانت الكتيبة خُمْساً لله تعالى، وسهمَ النبي ﷺ وسهمَ ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وطُعْمة أزواج النبي ﷺ، وطُعْمة أقوام مشوا في صلح أهل فدك، منهم مُحَيصة بن مسعود أقطعه رسول الله ﷺ ثلاثين وسقاً من تمر وثلاثين وسقاً من شعير. قال: وكان واديا اللذان قسمت عليه يقال لهما: وادي السَّرير ووادي خاص[4]».

---

(١) السيرة النبويّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٣٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨١.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٨٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٨٣.

إن مـا لم يقسم من خيبر وبقي تحت تصرف رسول الله ﷺ ، يعني بقاؤه في خزينة الدولة يصرف في المصالح العامة ، ودليل ذلـك مـا ورد عنـد ابن كثير : « فكانت هـذه الأموال لرسول الله ﷺ خـاصـةً ، وكان يَعْزل منها نفقةَ أهله لسنة ، ثم يجعل ما بقي مَجْعلَ مـالِ الله يَصْرِفـه في الكِراع والسِّلاح ومصالح المسلمين »[1] .

ويقول ابن كثير : « فلما مات صلوات الله وسلامـه عليـه اعتقـدت فاطمة وأزواج النبي ﷺ ـ أو أكثرهن ـ أن هذه الأراضي تكون موروثـةً عنـه ، ولم يبلغهن مـا ثبت عنـه من قـولـه ﷺ : « نحن مَعْشَرَ الأنبيـاء لا نُورَث ، ما تركناه فهو صدقة » .

ولما طلبت فاطمـة وأزواج النبي ﷺ والعبـاس نصيبَهم من ذلـك وسـألـوا الصـدِّيـق أن يسلِّمـه إليهم ، ذكر لهم قـولَ رسـول الله ﷺ : « لا نورث ما تركناه صدقة » ، وقال : أنـا أَعُول من كان يعول رسول الله ﷺ ، والله لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إلي أن أَصِلَ من قرابتي .

وصدق رضي الله عنه وأرضاه ، فإنه البـارُّ الراشـد في ذلـك التـابع للحق .

وطلب العباس وعليّ على لسان فاطمـة ، إذ قـد فـاتهم الميراث ، أن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٦/٣٨٥ .

ينظرا في هذه الصدقة وأن يَصْرفا ذلك في المصارف التي كان النبي ﷺ يصرفها فيها، فأبى عليهم الصدِّيق ذلك، ورأى أن حقاً عليه أن يقوم فيما كان يقوم فِيه رسول الله ﷺ، وألا يخرج من مَسْلكه ولا عن سننه.

فتغضَّبت فاطمةُ رضي الله عنها عليه في ذلك ووجدت في نفسها بعضَ المَوْجِدة.

ولم يكن لها ذلك، والصِّديقُ مَنْ قد عَرفت هي والمسلمون محلَّه ومنزلته من رسول الله ﷺ وقيامَهُ في نصرة النبي ﷺ في حياته وبعد وفاته، فجزاه الله عن نبيِّه وعن الإسلام وأهله خيراً.

وتوفيت فاطمة رضي الله عنها بعد ستة أشهر ثم جدَّد عليٌّ البيعةَ بعد ذلك، فلما كانت أيام عمر بن الخطاب سألوه أن يقوِّض أمر هذه الصدقة إلى علي والعباس، وثقلوا عليه بجماعة من سادات الصحابة، ففعل عمر رضي الله عنه ذلك، وذلك لكثرة أشغاله واتساع مملكته وامتداد رعيته.

فتغلَّب عليٌّ على عمه العباس فيها، ثم تساوَقا يختصمان إلى عمر، وقدَّما بين أيديهما جماعة من الصحابة وسألا منه أن يقسمها بينهما فينظر كلٌّ منهما فيما لا ينظر فيه الآخر، فامتنع عمر من ذلك أشدَّ الامتناع، وخشي أن تكون هذه القسمة تشبه قسمةَ المواريث وقال: انظرا فيها وأنتما جميع، فإن عجزتما عنها فادفعاها إليَّ، والذي تقوم السماء والأرض بأمره لا أقضي فيها قضاءً غير هذا.

فاستمرًا فيها ومن بعدهما إلى ولدهما إلى أيام بني العباس، تُصْرَف في المصارف التي كان رسول الله ﷺ يصرفها فيها، أموال بني النضير وفدك وسهم رسول الله ﷺ من خيبر.

وعن ابن عمر قال: «قسَّم رسولُ الله ﷺ يومَ خيبر للفَرَس سهمين وللراجل سهماً»، وفسَّره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، وإن لم يكن معه فرس فله سهم. ويؤيد ذلك ما جاء في السيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة: «فأعطى الرجل سهماً والفارس ثلاثة أسهم».

وكان الجيش ألفاً وخمسئة، فيهم ثلاثمئة ـ وفي رواية مئتا ـ فرس، وهذا يدل بوضوح على اهتمام رسول الله ﷺ بتربية الخيل والعناية بها.

ودفع ﷺ غنيمة خيبر إلى من شهد الحديبية مِمَّن حضر خيبر ومن غاب عنها، ولم يغب عن خيبر ممن شهد الحديبية إلا جابر بن عبد الله فضرب له بسهمه.

«إنْ تَصْدِقِ اللهَ يَصْدُقْكَ»:

روى البيهقي أن رجلاً من الأعراب جاء رسولَ الله ﷺ فآمن به واتبعه، فقال: أُهاجر معك، فأوصى به رسول الله ﷺ بعضَ أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غَنِمَ رسولُ الله ﷺ فقسمه وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال:

ما هـذا ؟ قـالوا : قَسْمٌ قسمـه لـك رسول الله ﷺ ، فقـال : مـا على هـذا اتبعتك ، ولكني اتبعتك على أن أُرْمى هاهنا ، وأشـار إلى حَلْقِـه بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال ﷺ : « إن تَصْدُق الله يَصْدُقْكَ » .

ثم نهضوا إلى قتـال العـدو ، فـأُتي بـه إلى رسول الله ﷺ محمولاً وقـد أصابه سهم حيث أشار ، فقال رسول الله ﷺ : « هو هو ؟ » قالوا : نعم ، قال : « صدق الله فصدقه » .

وكفَّنه رسولُ الله ﷺ ثم قـدَّمـه فصلَّى عليـه ، وكان مِمَّـا ظهر في صلاته : « اللّهم هذا عبدك ، خرج مهاجراً في سبيلك ، قُتِلَ شهيداً ، وأنا عليه شهيد »[1] .

صَفِيَّة بنت حُيَيّ بن أَخطب :

أمر ﷺ بـالغنـائم التي غُنِمَت قبل الصلـح فجمعت ، وجـاء بـلال بصفيـة بنت حُيَيّ بن أخطـب وبـأُخرى معهـا ، فمر بهما على قتلى يهـود ، فلما رأتهم التي مع صفيَّـة صـاحت وصكَّت وجههـا ، وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول الله ﷺ قال : « أغربوا عني هـذه الشيطـانـة » ، وأمر بصفيَّة فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فعرف المسلمون أنه قـد اصطفـاهـا لنفسـه ، وقـال ﷺ لبـلال حين رأى من تلـك اليهـوديـة

(١) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٩١ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٦٢ .

مـا رأى : «أنزعت منـك الرحمـة يـا بلال ؟ حين تمرّ بـامرأتين على قتلى رجالهما» .

وكانت صفيَّة قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قمراً وقع في حِجْرِها ، فعرضت رؤيـاهـا على زوجهـا ، فقـال : ما هذا إلا أنك تمنين مَلِكَ الحجاز محمداً ، فلطم وجهها لطمـة خضَّر عينهـا منها ، فأُتي بها رسول الله وبها أثر منه ، فسألها ما هو ؟ فأخبرته بالخبر[1] .

وخيَّرهـا رسـول الله ﷺ أن يعتقهـا وتكـون زوجـه ، أو تلحـق بأهلها ، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته[2] .

وقال بعضهم : إن صفية كانت لدِحْية[3] قبل أن يصطفيهـا رسول الله ﷺ . وفي زواج رسول الله ﷺ من صفيَّة حكمة بالغة ، إنما أخذ صفيَّة لأنها

---

(1) الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٣١/ب ، الطبري : جـ ٣ ص ١٤ ، ابن هشـام : جـ ٣ ص ٢١٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٩٧ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٥٠ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٧٤ .

(2) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٤١٠ ، ومما قـالتـه رضي الله عنهـا : « يـا رسول الله قـد كنت أتمنى ذلك في الشرك ، فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام ؟ » . فأعتقهـا وتزوجهـا ، وحسن إسلامهـا ، حتى قـالت والرسـول في مرضـه الأخير : « إني والله يـا نبي الله لـوددت أن الذي بك بي » .

(3) دِحْيَة بن خليفـة بن فَرْوة بن فضـالـة بن زيـد بن امرئ القيس .. الكلبي ، شهـد أُحُـداً ومـا بعدها ، وكان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورته أحياناً ، وهو الذي حمل رسالة رسول الله إلى قيصر الروم . (أُسد الغابة : جـ ٢ ص ١٥٨) .

بنت ملك من ملوكهم[1] ، وليس ممن توهب لدحية لكثرة من في الصحابة مثل دحية وفوقه ، وقلة من كان في السبي مثل صفية نسباً ومكانة ، فلو خصَّه ﷺ بها لأمكن تغيّر خاطر بعضهم ، فكان من المصلحة العامة اختصاص رسول الله بها ، ففي ذلك رضا الجميع من جهة ، مع مصاهرة وقرابة مع قومها علَّهم يتركون التآمر والخيانة من جهة ثانية .

تقول صفيَّة : « ما رأيت أحداً قط أحسن خُلُقاً من رسول الله ﷺ ، لقد رأيته ركب بي من خيبر ، حين أفاء الله عليه ، ناقته ليلاً ، فجعلت أنعس ، فيضرب رأسي مؤخرة الرحل ، فيمسني بيده ويقول : يا هذه مهلاً يا ابنة حُيَيّ ، حتى إذا جاء الصهباء وقال : أما إني أعتذر إليك يا صفيَّة مما صنعت بقومك ، إنهم قالوا لي كذا وقالوا لي كذا .. ذكرها بخياناتهم » .

سئل أنس رضي الله عنه عن صفيَّة ، فقيل له : يا أبا حمزة ما أصدقها ؟ قال : نفسها ، أعتقها وتزوجها ، أي أعتقها بلا عوض ، وتزوجها بلا مهر[2] .

---

(١) وأمها بردة بنت سموأل ، أخت رفاعة بن سموأل .

(٢) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢١٢ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٣ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١١٦ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣٣ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٣٩ ، السيرة النبوية : جـ ٢ ص ٥٠ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٦١ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٧٣ .

أموال الأُمّة :

ولما انصرف المسلمون عن خيبر إلى وادي القرى، نزلوا بها أصيلاً مع مغرب الشمس، ومع رسول الله ﷺ غلام له أهداه له رفاعة بن زيد الجذامي[1].

قال أبو هريرة : فوالله إنه ليضع رحل رسول الله ﷺ إذ أتاه سهم غرب (لا يعرف من ضربه) فأصابه فقتله، فقلنا : هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله ﷺ : «كلا، والذي نفس محمد بيده، إن شملته الآن لتحترق عليه في النار، كان غلَّها من فيء المسلمين يوم خيبر». فسمعها رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فأتاه فقال : يا رسول الله أصبت شراكين لنعلين لي، فقال ﷺ : «يقد لك مثلها من النار».

قال عبد الله بن مغفل المزني : أصبت من فيء خيبر جراب شحم فاحتملته على عاتقي إلى رحلي وأصحابي، فلقيني صاحب المغانم أبو اليسر كعب بن زائد الأنصاري، فأخذ بناحيته وقال : هلمَّ هذا نقسمه بين المسلمين. فقال عبد الله المزني : لا والله لا أُعطيكه، فجعل يجاذبني الجراب، فرآنا رسول الله ﷺ ونحن نصنع ذلك، فتبسَّم رسول الله ﷺ، ثم قال لصاحب المغانم[2] : «لا أبالك، خَلِّ بينه وبينه، فأرسله،

---

(١) في عيون الأثر : جـ ٢ ص ١١٤ : يقال له : بدعم، والبداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢١٨ : يقال له : مدعم.

(٢) المكلَّف بحراسة المغانم (الذي جُعِلَ عليها). البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٩٥.

فانطلق به إلى رحله وأصحابه فأكلوه ».

سئل الصحابي عبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول : كنتم تخمّسون الطعام في عهد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أصبنا طعاماً يوم خيبر، وكان الرجل يجيء فيأخذ منه قدر ما يكفيه ثم ينصرف ، « فالطعام لا يُخَمَّس[1] ».

حديث رويفع بن ثابت الأنصاري :

قال ابن إسحاق : حدثني يزيد بن أبي حبيب عن أبي مرزوق مولى تجيب عن حنش الصنعاني قال : غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصاري المغرب ، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة ، فقام فيها خطيباً فقال : أيها الناس ، إني لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ ، يقول فينا يوم خيبر، قام فينا رسول الله ﷺ فقال : « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءً زرع غيره - يعني إتيان الحبالى من السبي - لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السَّبي حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يقسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها[2] ردَّها فيه ، ولا يحل

---

(١) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٩٥ .

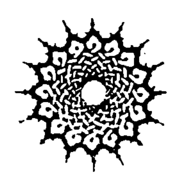
(٢) العَجَف : الهُزال ، وأعجفه : هَزَلَه ، مختار الصحاح : ص ٤١٤ و ٤١٥ .

لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس يوماً من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه »[١] .

وفي خيبر: « نهى ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية »[٢] .

وفي قول لرواة الأثر: « نهى ﷺ عن نكاح المتعة يوم خيبر»[٣] .

وفي مرجع المسلمين من خيبر: « ناموا عن صلاة الصبح ، وكان أوَّلهم استيقاظاً رسول الله ﷺ ، فقال : ماذا صنعت بنا يا بلال ؟[٤] قال : يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك ، قال : صدقت ، ثم اقتاد ناقته غير كثير، ثم نزل فتوضأ وصلى كما كان يصليها قبل ذلك » .



---

(١) ابن سعد : جـ ٢ ص ١١٥ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٩٢ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٣ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٣٩ .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣١/ب ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٠ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١١٣ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٤٦ .

(٣) وفي رواية : حُرِّمت في عمرة القضاء ، أو عام الفتح ، أو في تبوك ، أو في حجة الوداع ، (الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٥٩) .

(٤) لأنه قد قال ﷺ لبلال : « اكلأ لنا الليل » .

قدوم جعفر بن أبي طالب ﵁ من الحبشة

☆ «واللهِ ما أدري بأيهما أفرح،
بفتحِ خيبر أمْ بقدومِ جعفر؟».
رسول الله ﷺ

وقدم على رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر جعفر بن أبي طالب - ومن معه - من أرض الحبشة. فقال له ﷺ: «ما أدري بأيهما أنا أُسَرُّ، بفتح خيبر، أَمْ بقدوم جعفر؟»[1].

وفي رواية، قال ﷺ: «والله ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أَمْ بقدوم جعفر[2]؟».

وقال ﷺ له أيضاً: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي، جعفر أشبه الناس بي خَلْقاً وخُلُقاً[3]».

(١) الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣٤/أ، ابن هشام: جـ ٣ ص ٢٣٢، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٢٠٥، السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٥٦، ٥٧، السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٣٩٠، السيرة النبوية والآثار المحمدية: جـ ٢ ص ٢٥١.

(٢) السيرة النبوية والآثار المحمدية: جـ ٢ ص ٢٥١، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٢٠٦.

(٣) السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٥٧.

وكان يسميه ﷺ : أبا المساكين ، لأنه رضي الله عنه كان يحب المساكين ، ويجلس إليهم ، ويحدثهم ويحدثونه .

عن عَبد الله بن قيس :

قال عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري) : بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم ، أحدهما أبو بُردة[1] ، والآخر أبو رُهْم[2] ، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة[3] ، فوافَقْنا جعفرَ بن أبي طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً ، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر ، فكان أُناسٌ من الناس يقولون لنا (يعني لأهل السفينة) سبقناكم بالهجرة ، ودخلت أسماء بنت عُمَيس - وهي ممن قدم معنا - على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر ، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت

---

(١) أبو بُرْدَةَ : عامر بن قيس الأشعري ، وفي ترجمته في أُسد الغابة : جـ ٦ ص ٣٩ « خرجنا من اليمن في بضع وخمسين رجلاً من قومنا » .

(٢) أبو رُهْم بن قيس الأشعري ، في ترجمته في أسد الغابة : جـ ٦ ص ١١٧ : « هاجر أبو رهم إلى المدينة مع أخويه أبي موسى وأبي بردة من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب حين افتتح رسول الله ﷺ خيبر ، فأسهم لهم منها » .

(٣) في أُسد الغابة : جـ ٣ ص ٣٦٨ في ترجمة أبي موسى الأشعري : « فألقتهم الريح إلى النجاشي ، فوافقوا خروج جعفر وأصحابه منها ، فأتوا معهم وقدمت السفينتان معاً ، سفينة جعفر وسفينة الأشعريين على النبي ﷺ حين فتح خيبر » .

عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويَعِظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء والبغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسول الله ﷺ، وأيم الله، لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلت للنبي ﷺ وأسأله، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه، فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله، إن عمر قال كذا وكذا، فقال: «فما قلت له؟» قالت: قلت كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وأهل السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ، قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وأنه ليستعيد هذا الحديث مني[1].

أُمُّ حَبِيبَة بنت أَبي سفيان:

وقدمت مع جعفر رضي الله عنه أُمُّ حبيبة بنت أبي سفيان زوج رسول الله ﷺ، عقد عليها وهي بالحبشة، فإنها كانت ممن هاجر الهجرة الثانية للحبشة، فارتد زوجها عبيد الله بن جحش وتَنَصَّر، وبقيت

---

(١) البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٢٠٥ و ٢٠٦.

هي على إسلامها ، فأرسل ﷺ عمرو بن أُمية الضَّمْري رضي الله عنه إلى النجاشي ليزوجها منه ﷺ ، فدخلت جارية النجاشي فقالت لها : إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إليه أن يزوجك منه ، فقالت لها : بشَّره الله بالخير، ويقول لك : وكِّلي من يزوجك ، فأرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد ، وأعطت تلك الجارية سوارين وخلخالين وخواتيم فضة سروراً بما بشَّرت به ، فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين فحضروا ، وخطب النجاشي فقال : الحمد لله الملك القدُّوس المؤمن المهين العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنه الذي بَشَّر به عيسى بن مريم عليه السَّلام ، أما بعد ، فإن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجه أُم حبيبة بنت أبي سفيان ، فأجبنا إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ ، وقد أصدقها أربعمئة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم .

ثم تكلَّم خالد بن سعيد بن العاص فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كُلِّه ولو كره المشركون . أما بعد ، فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أُم حبيبة بنت أبي سفيان فبارك الله لرسول الله ﷺ[1] .

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٥٨ .

فلما عادت من الحبشة أكرمها رسول الله ﷺ، وعوَّضها الله خيراً من زوجها المرتد، لقد أصبحت (أم المؤمنين)، ولما سمع والدها أبو سفيان نبأ زواجها قال: وهذا الفحل لا يجدع أنفه.

وهذا الزواج، زواج سياسي أيضاً، إنه - ﷺ - قد تزوَّج من ابنة زعيم مكة - أبي سفيان - لقد طمع ﷺ أن يجلب زعيم مكة، ورأس الشرك فيها إلى الإسلام بالمصاهرة.

مَنْ عَاد مع جعفر:

أورد ابن إسحاق أسماء الذين تأخَّروا مع جعفر من أهل مكة، إلى أن قدموا معه خيبر، ستة عشر رجلاً، ذكر أسماءهم وأسماء نسائهم وهم[1]:

١ - جعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عُمَيس، وابنه عبد الله ولد بالحبشة.

٢ - خالد بن سعيد بن العاص بن أُميَّة بن عبد شمس، وامرأته أمينة بنت خلف بن أسعد، وولداه سعيد وأَمَة، ولدا بأرض الحبشة.

٣ - وأخوه عمرو بن سعيد بن العاص.

٤ - مُعَيقيب بن أبي فاطمة.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٣٩١ و ٣٩٢.

٥ ـ أسود بن نوفل بن خويلد بن أسد الأسدي .

٦ ـ جَهْم بن قيس بن عبد شُرَحبيل العَبْدري[1] .

٧ ـ عامر بن أبي وقاص الزُّهري .

٨ ـ عتبة بن مسعود .

٩ ـ الحارث بن خالد بن صخر التيمي[2] .

١٠ ـ عثمان بن ربيعة بن أهبان الجمحي .

١١ ـ محمية بن جزْء الزَّبيدي .

١٢ ـ مَعْمر بن عبد الله بن نَضلة العَدوي .

١٣ ـ أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس .

١٤ ـ مالك بن ربيعة بن قيس بن عبد شمس ، وامرأته عَمْرة بنت السَّعدي .

١٥ ـ الحارث بن عبد شمس بن لَقيط الفهري .

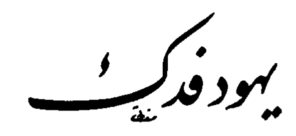
١٦ ـ وذكر ابن إسحاق أبا موسى الأشعري معهم ، مع أن أبا موسى وأخَوَيْهِ ومن كان معهم من الأشعريين قدموا من اليمن ، فألقتهم الريح إلى الحبشة ، وقدموا مع جعفر في سفينتين .

☆ ☆ ☆

---

(١) ماتت امرأته أم حَرْملة بنت عبد الأسود بأرض الحبشة ، وابنه عمرو ، وابنته خزيمة ماتا بها رحمهم الله .

(٢) ماتت امرأته رَيْطة بنت الحارث بأرض الحبشة .



☆ « والله ليظهرنّ محمد على ما بين المشرق والمغرب ..» .

الحارث بن عوف .

لما أقبل رسول الله ﷺ على خيبر ودنا منها ، بعث مُحَيِّصَة بن مسعود إلى أهل فدك[1] يدعوهم إلى الإسلام ويحذرهم ، قال محيِّصة : فجئتهم فجعلوا يتربَّصون ويقولون : إن بخيبر عشرة آلاف مقاتل فيهم عامر وياسر والحرث وسيد اليهود مرحب[2] ، ما نرى أن محمداً يقرب إليه ، فمكثت عندهم يومين ، ثم أردت الرجوع ، فقالوا : نحن نرسل معك رجالاً منا فيأخذون لنا الصلح ، كل ذلك وهم يظنون أنه ﷺ لا يقدر على فتح خيبر، حتى جاءهم أناس من حصن ناعم وأخبروهم أن رسول الله ﷺ فتحه ، فأرسلوا رجلاً من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع[3] في

---

(١) فَدَك : فَدَّكْتُ القطن تفديكاً إذا نفشته ، وفدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان أو ثلاثة ، فيها عين فوّارة ونخيل كثير ، معجم البلدان : جـ ٤ ص٢٣٨ .

(٢) ويهود فدك طرف في الحلف المعقود برئاسة خيبر لغزو المدينة .

(٣) في معجم البلدان : يوشع بن نون : جـ ٤ ص ٢٣٩ .

نفر يصالحون رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم ويجليهم ويُخْلي بينهم وبين الأموال، ففعل ذلك رسول الله ﷺ[1].

وفي معجم البلدان[2]: صالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك، ولم يزل أهلها بها حتى أجلى عمر اليهود، فقوَّم لهم النصف بقيمة عدل، فدفعها إلى اليهود وأجلاهم إلى الشام، وهذا الأصح.

☆ ☆ ☆

عُيَيْنَةُ بن حصن الفزاري[3]:

ولما فتحت خيبر، قدم عيينة بن حصن وقال لرسول الله ﷺ: اعطني مما غنمت من حلفائي، فإني امتنعت عنك وعن قتالك، فقال له رسول الله ﷺ: «كذبت، ولكن الصياح الذي سمعت أنقذك إلى أهلك، ولكن لك ذو الرقيبة»، قال عيينة: وما ذو الرقيبة؟

---

(١) لأخبار فدك راجع: الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣٢/ب، السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٥٨، ابن هشام: جـ ٣ ص٢٢٨، الطبري: جـ ٣ ص ١٥، ابن خلدون: جـ ٢ ص ٤٠، فتوح البلدان للبلاذري: ص٤٣، الكامل في التاريخ: جـ ٢ ص١٥٢.

(٢) راجع معجم البلدان: جـ ٤ ص ٢٣٨ وما بعدها. وكانت فدك حبساً لأبناء السبيل.

(٣) راجع لترجمته غزوة الخندق: ص ٧١.

قال رسول الله ﷺ : « الجبل الذي رأيت في منامك أنك أخذته[1] » .

وعاد عيينة خائباً وقال لليهود بعد تمام فتح خيبر: ما رأيت كاليوم أمراً ، والله ماكنت أرى أحداً يصيب محمداً غيركم ، أهل الحصون والعُدَّة والثروة ، أعطيتم بأيديكم وأنتم في هذه الحصون المنيعة ، وهذا الطعام الكثير ما يوجد له آكل ، والماء الواتن !!

ورأى عيينة الحارث بن عوف ، فقال له الحارث : ألم أقل لك إنك توضع في غير شيء ، والله ليظهرنَّ محمد على ما بين المشرق والمغرب ، وإن يهود كانوا يخبروننا بهذا ، أشهد لسمعتُ أبا رافع سلاّم بن أبي الحقيق يقول : إنا لنحسد محمداً على النبوَّة حيث خرجت من بني هارون ، إنه لمرسَل ، ويهود لا تطاوعني على هذا ، ولنا منه ذبحان ، واحد بيثرب وآخر بخيبر، وقال الحارث : قلت لسلام : يملك الأرض ؟ قال نعم والتوراة التي أُنزلت على موسى ، وما أحبُّ أن تُعلَم يهود بقولي فيه[2] .

☆ ☆ ☆

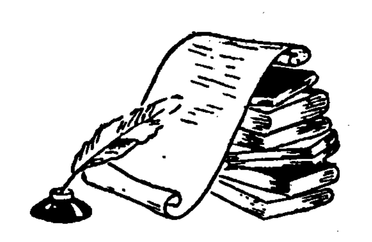
---

(١) رأى عيينة في منامه رؤيا فاستيقظ مستبشراً وقال لقومه : أبشروا فإني رأيت الليلة أني أُعطيت ذا الرقيبة ـ وهو جبل بخيبر ـ فقال له رسول الله لما أتاه : « كذبت رؤياك » وأخبره بما رأى .

(٢) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢١٢ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٤٠١ .

قال ابن لُقيم العبسي حين افتتحت خيبر:

رُمِيَتْ نَطَاةُ مِنَ الرَّسُولِ بفَيْلَقٍ شهباءَ ذاتِ مَنَاكبٍ وَفَقَارِ[1]
واستيقَنتْ بالذل لَّما شُيِّعت وَرِجالُ أَسْلَم وسطَها وغِفارِ
صبحَت بني عمرو بن زُرعة غدوةً والشِّقُّ أظْلَمَ أهْلُهُ بنهارِ
جرَّت بأبطحها الذيولَ فلم تَدَعْ إلاَّ الدَّجَاجَ تصيحُ بالأسحارِ
وَلِكُلِّ حصنٍ شَاغِلٌ مِن خيلهم من عبد الاشْهَلِ أو بني النجارِ
ومهاجرين قد أُعلِموا سيماهُم فوق المَغَافِرِ لَم يَنُوا لفِرار
ولقد علمتُ لَيغلِبَنَّ مُحَمَّدٌ ولَيَثْوِين بها إلى أصفارِ[2]
فَرَّت يَهُودٌ عندَ ذلك في الوغى تحت العَجاجِ غمائِمَ الأَبصارِ[3]



---

(١) نطاة : حصن بخيبر ، والفيلق : الكتيبة ، والشهباء : الكثيرة السلاح ، وذات مناكب وفقار : شديدة .

(٢) أصفار : جمع صفر ، وهو الشهر المعروف .

(٣) الغمائم : جفون العين .

الحجاج بن علاط السلمي رضي الله عنه

☆ «إني تركت رسول الله ﷺ قد فتح خيبر، وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها، وتركته عروساً بابنة ملكهم حُيَيّ بن أَخْطَب، وقتل ابن أبي الحقيق»

الحجاج بن عِلاَط السُّلَمي

وقدم على رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر الحجاج بن علاط[1] السُّلَمي ثم البَهْزي، فأسلم، وكان غنياً كثير المال، فقال: يا رسول الله، إن مالي عند امرأتي - أُم شيبة بنت أبي طلحة - بمكة، ومتفرِّق في تجار مكة، فائذن لي أن آتي مكة لآخذ مالي، قبل أن يعلموا بإسلامي، فلا أقدر على أخذ شيء منه، فأذِنَ له رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله،

---

(١) في الاكتفاء (علاظ) والأصح علاط، والعلاط وسم في العنق، راجع لخبره هذا: الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣٣ / ب، الطبري: جـ ٣ ص ١٧، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٢١٥، ابن سعد: جـ ٢ ص ١٠٨، الكامل في التاريخ: جـ ٢ ص ١٥١، ابن هشام: جـ ٣ ص ٢٢٣، السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٦٠، السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٤٠٧، السيرة النبوية والآثار المحمدية: جـ ٢ ص ٢٥٣.

لا بدّ من أقول ـ أي أتقوَّل ـ وأذكر ما هو خلاف الواقع ، أي ما أحتال به لما يوصل إلى أخذ مالي ، قال ﷺ : قل[1] .

قال الحجاج : فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنية البيضاء رجالاً من قريش يستمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ وقد بلغهم أنَّه قد سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعَة ورجالاً ، وهم يتجسَّسُون الأخبار من الركبان ، وكان بينهم تراهن عظيم وتبايع ، منهم من يقول : يظهر محمد وأصحابه ، ومنهم من يقول : يظهر الحليفان ويهود خيبر، وراهن بعضهم على مئة بعير في أن النبي ﷺ يغلب أهل خيبر، أَوْلا . قال حويطب بن عبد العزى وجماعةٌ : الرأيَ الأول ، وقال ابن عباس بن مرداس وجماعةٌ : الرأيَ الثاني . فقالوا : الحجاج عنده والله الخبر ـ ولم يكونوا علموا بإسلامه ـ ، يا حجاج إنه قد بلغنا أن القاطع ـ يعنون رسول الله ﷺ ـ قد سار إلى خيبر، فقال الحجاج : عندي من الخبر ما يسركم ، فاجتمعوا يقولون : إيه يا حجاج !؟

قال الحجاج : فقلت لهم لم يلق محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتل غير أهل خيبر، فهزم هزيمة لم يُسْمَع بمثلها قط ، وأُسر محمد ، وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فنقتله بين أظهرهم ، يقتلونه بمن كان

---

(١) أي : قل ما بدا لك لتخلِّص مالك من بين أيديهم .

أصاب من رجالهم، فصاحوا وقالوا لأهل مكة: قد جاءكم الخبر، هذا محمد إنما تنتظرون أن يُقْدَمَ به عليكم فيقتل بين أظهركم.

وقال الحجاج: وقلت لهم: أعينوني على غرمائي، أُريد أن أقدم فأُصيب من غنائم محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هناك، فجمعوا إليَّ مالي على أحسن ما يكون، ففشا ذلك بمكة، وأظهر المشركون الفرح والسُّرور، وانكسر من كان بمكة من المسلمين، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب، فجعل لا يستطيع أن يقوم، ثم أخذ ابناً يقال له قُثَم، واستلقى ووضعه على صدره وهو يقول:

حِبِّي قَثَمْ شِبْه ذي الأَنف الأَشمّ
بني ذي النِّعمْ برَغْم مَنْ زَعَمْ[1]

ثم بعث العباس إلى الحجاج غلاماً يقول له: أبو زبيبة[2]، وقال: قل له يقول لك العباس الله أعلى وأجل من أن يكون الذي جئت به حقّاً، فقال الحجاج للغلام: اقرأ على أبي الفضل السَّلام وقل له: ليُخْلِ لي بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسرّه واكتم عني، فأقبل الغلام فقال: أبشر أبا الفضل، فوثب العباس فرحاً كأن لم يمسه شيء، وأخبره بذلك، فأعتقه العباس رضي الله عنه، وقال: لله عليَّ عتق عشر رقاب، فلما

---

(١) البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٢١٦، السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٤٠٩.

(٢) ابن سعد: جـ ٢ ص ١٠٨.

كان ظهراً جاءه الحجاج فناشده الله أن يكتم عنه ثلاثة أيام ، وقال : إني أخشى الطلب ، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك ، فوافقه العباس على ذلك ، وقال الحجاج : إني قد أسلمت ، وإن لي مالاً عند امرأتي[1] ، ودَيْناً على الناس ، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إلي ، إني تركت رسول الله ﷺ قد فتح خيبر ، وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها ، وتركته عروساً بابنة ملكهم حُيَيّ بن أخطب ، وقتل ابن أبي الحقيق ، فلما أمسى الحجاج غادر مكة .

وطالت على العباس تلك الليالي الثلاث ، فلما مضى الحجاج ومضت الثلاث ، عمد العباس رضي الله عنه إلى حلة فلبسها ، وتخلق بخلوق[2] ، وأخذ بيده قضيباً ، ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مرَّ بهم : لا يصيبك إلا خير ياأبا الفضل ، وهذا والله التجلُّد[3] بحرِّ المصيبة ، قال : كلا والله الذي حلفتم به ، لم يصبني إلا خير

(١) قال الحجاج لزوجه حين قدم : أخفي علي واجمعي ماكان عندك ، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه ، فإنهم قد استبيحوا وأصيبُ أموالَهم . ولما خرج الحجاج من مكة ، قال لها العباس حقيقة الأمر ، ثم قال : فإن لك في زوجك حاجة فالحقي به ، قالت : أظنك والله صادقاً ، قال : فإني والله صادق والأمر على ماأقول .

(٢) أي تطيَّب بالخَلوق ، والخَلوق : ضرب من الطيب ، وخَلّقه تَخْليقاً ، طلاه به فتخلَّق ، (مختار الصحاح : ص ١٨٧) .

(٣) التَّجَلُّد تكلُّف الجَلاَدة ، والجلادة الصلابة ، والمراد هنا والله تصبُّر وصلابة وتكلُّف لجَلاَدة ، (مختار الصحاح : ص ١٠٧) .

بحمد الله ، أخبرني الحجاج أن خيبر فتحها الله على يد رسول الله ﷺ ، وجرت فيها سهام الله وسهام رسول الله ، واصطفى رسول الله صفية بنت ملكهم حُيَيّ بن أخطب لنفسه ، وأنه تركه عروساً بها ، وإنما قال ذلك لكم ليخلِّص ماله ، وإلا فهو ممن أسلم ، فردَّ الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين ، فقال المشركون : ألا يا عباد الله انفلت عدو الله - يعنون حجاجاً - أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن ، ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك .



الشاة المسمومة

☆ «ما زالت الأُكْلَـةُ التي أكلت بخيبر
تُعَادُّني فهذا أوانُ انقطاع أبهري».
رسول الله ﷺ.

ولما اطمأن الناس بعد فتح خيبر، جعلت زينب بنت الحرث[1] أخي مرحب، وهي امرأة سلام بن مشكم تسأل: أي الشاة أحب إلى محمد؟ فيقولون: الذراع. فعمدت إلى عنزٍ لها فذبحتها وسلختها وطبختها، ثم عمدت إلى سمّ لا يلبث أن يقتل من ساعته، فسمَّت الشاة، وأكثرت في الذراعين وللكتف، فلما غابت الشمس، صلى رسول الله ﷺ المغرب بالناس، انصرف وهي جالسة عند رحله، فسألها عن الشاة، فقالت: يا أبا القاسم، هديَّة أهديتها لك. فأَمَرَ بها ﷺ فأخذت منها ووضعت بين يديه وبعض أصحابه حضور، وفيهم بشر بن البراء بن معرور، فقال رسول الله ﷺ: ادنوا، فقعدوا، وتناول رسول الله ﷺ الذراع ـ أو الكتف ـ فانتهش منه، فلما ازدرد ﷺ لقمة ازدرد بشر ما في فيه، فقال

(١) في ابن هشام: جـ ٣ ص ٢١٨ «الحارث»، ولأخبار الشاة المسمومة راجع: الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣٢/ب، السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٦٣، السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٣٩٤و ٣٩٨، ابن خلدون: جـ ٢ ص ٣٩، الطبري: جـ ٣ ص ١٥، الوفا بأحوال المصطفى: جـ ٢ ص ٧٦٧، الروض الأنف: جـ ٤ ص ٦٢، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٢٠٨، الكامل في التاريخ: جـ ٢ ص ١٥٠، السيرة النبوية والآثار المحمدية: جـ ٢ ص ٢٥٠.

ﷺ : ارفعوا أيديكم فإن هـذه الـذراع أو الكتف تخبرني أنها مسمومـة ، فقال بشر : والذي أكرمك ، لقد وجـدت ذلـك في أكلتي ـ أي في لقمتي ـ التي أكلت ، فما منعني أن ألفظها إلا أن أُنغِّص عليـك طعـامـك ، فلمـا أكلتَ مـا في فيـك لم أرغب نفسي عن نفسـك ، ورجـوت أن لا تكـون ازدردتها ، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونـه كالطيلسـان ـ أي أسود ـ وماطله وجعه سنة ثم مات .

وفي روايـة : مـات لسـاعتـه (فلم يقم بشر من مكانـه حتى تُوفي) ، والأرجح أنه عاش سنة ، لأنه لم يـأكل من المكان المسموم بكثرة ، والـذي أكل منه رسول الله ، وازدرد منه لقمة .

ثم أرسل ﷺ إلى تلك اليهودية ، فقال : « أسممت هذه الشـاة ؟ » ، فقـالت : من أخبرك ؟ قـال : « أخبرتني التي في يـدي » ، وهي الـذراع ، قـالت : نعم ، قـال : « مـا حملـك على مـا صنعت ؟ » قـالت : بلغت من قومي مـالا يخفى عليـك ، قتلت أبي وعمي وزوجي ، ونلت من قـومي ما نلت ، فقلت إن كان ملكاً استرحنا منه ، وإن كان نبياً فسيخبر .

أحببت ـ أو أردت ـ إن كنت نبياً فإن الله سيطلعك عليه ، وإن لم تكن نبياً أُريح الناس منك .

إن كنت نبياً فلن تضرّك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك .

فعفا عنها رسول الله ﷺ ، فلما مـات بشر أمر بهـا فقتلت ، دفعهـا

إلى أولياء بشر فقتلوها . وفي صحيح مسلم أنه لم يقتلها ، وقال ابن إسحاق : أجمع أهل الحديث على أن رسول الله ﷺ قتلها ، والأرجح أنه لم يقتلها في الابتداء ، لأنه ﷺ كان لا ينتقم لنفسه ، ولما مات بشر بن البراء من تلك الأكلة بعد سنة قتلها لأجله .

وقد اختلف في إسلامها ، قال بعضهم إنها قالت : قد استبان لي الآن أنك صادق ، وأني أُشهد من حضر أني على دينك ، وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . والأرجح عدم إسلامها .

☆ ☆ ☆

ويذكر أن أخت بشر بن البراء(١) دخلت عليه ﷺ في مرضه الذي مات فيه ، وبقي رسول الله ﷺ ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي تُوفي فيه ، فقال : « ما زلتُ أَجِدُ من الأكلة التي أكلتُ من الشاة يوم خيبر عَداداً(٢) ـ معاودة الألم ـ حتى كان هذا أوان انقطاع أَبْهَري(٣) » .

فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً ، مع ما أكرمه الله من النبّوة .

☆ ☆ ☆

---

(١) وفي الطبري ، أن أم بشر هي التي دخلت على رسول الله ﷺ .

(٢) وفي رواية : « ما زالت الأكلة التي أكلتُ بخيبر تُعَادُّني فهذا أوان انقطاع أبهري » ، وتُعَادُّني : تراجعني ويعاودني ألم سمّها .

(٣) الأبهر : عرق مستبطن القلب ، قال ابن مقبل:

وللفؤادِ وَجيبٌ تحتَ أَبْهَرِهِ   لَدَمَ الوليدِ وراء الغيب بالحجر

الصُّلْحُ :

ثم دفع رسول الله ﷺ الأرض لأهل خيبر لـمَّا قالوا له نحن أعلم بها منكم، وأعمرها بشطر ما يخرج منها من تمر وقمح وشعير وغير ذلك، وقال ﷺ لهم «على أن إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم[1]»، «أقركم ما أقرَّكم الله[2]»، «نقركم ما شئنا[3]».

وقدم عليهم عبد الله بن رواحة عاماً واحداً ـ لأنه استشهد في مُؤْتَة ـ خارصاً[4] فأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله، تطعموني في السُّحْت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض الناس عَليَّ، ولا يحملني بغضي إياكم، وحبي إياه على أن لا أعدل، فقالوا: بهذا قامت السَّموات والأرض. وإذا قالوا له تعديت علينا قال: إن شئتم فلكم، وإن شئتم فلنا، فتقول يهود: بهذا قامت السموات والأرض[5].

وكان يخرص عليهم بعده جبار بن صخر.

---

(١) السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٦٦، السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٣٧٥، ابن هشام: جـ ٣ ص ٢١٧.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري: ص ٣٦.

(٣) البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٢١٩.

(٤) الخَرْص: حزر ما على النخل من الرطب: (مختار الصحاح ص ١٧٢).

(٥) الاكتفاء: جـ ١ ص ١٣٤/ب، ابن هشام: جـ ٣ ص ٢٢٩.

وأقرَّهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ .

ثم أَقَرَّهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن خرج ولده عبد الله في خلافة أبيه إلى خيبر، فعدى عليه بعض اليهود ليلاً، ففدعت[1] يداه ورجلاه، فقام عمر رضي الله عنه خطيباً فقال: إن رسول الله ﷺ كان عامل أهل خيبر على أموالهم - أي أرضهم ونخيلهم - وقال لهم «أقركم ما أقركم الله»، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك، فعدي عليه من الليل، ففدعت يداه ورجلاه، وليس لنا هناك عدو غيرهم، وقد رأيت إجلاءهم.

أيها الناس، إن يهود فعلوا بعبد الله بن عمر ما فعلوا، وفعلوا بمطهر بن رافع[2] ما فعلوا، مع عَدْوِهم على عبد الله بن

(١) الفدع في المفاصل كأنها أزيلت عن أماكنها. أو اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم إلى أُنسيها.

(٢) قدم مطهر بن رافع خيبراً بأعلاج من الشام عشرة، عبيد له ليعملوا له بأرضه، فأقام بخيبر ثلاثة أيام، فقال لهم رجل من يهود: أنتم نصارى ونحن يهود، وهذا سيدكم من قوم عرب قهرونا بالسيف، وأنتم عشرة رجال، رجل واحد يسوقكم إلى الجهد والبؤس وتكونون في رق شديد - وهذا طبعاً كله تهويل وتحريض - فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه، فقالوا له: ليس معنا سلاح، فدسَّت اليهود لهم سكينتين أو ثلاثة، فلما خرجوا من خيبر أقبلوا على مطهر بسكاكينهم، فخرج مطهر يعدو إلى سيفه، وكان في قرابه على راحلته، فأدركوه قبل الوصول إليه وبقروا بطنه، ثم انصرفوا سراعاً حتى دخلوا خيبر على يهود، فآووهم وزودوهم إلى الشام، وجاء عمر رضي الله عنه الخبر بقتل مطهر وما صنعت اليهود، فكان ذلك أحد أسباب إجلائهم.

سهيل[1] في عهد رسول الله ﷺ . ولا أشك أنهم أصحابه ، وأنا أريد أن أجلوَ يهود ، فإن رسول الله ﷺ قال : « أُقركم ما أَقركم الله » ، وقد أذن الله في إجلائهم .

فقام طلحة بن عبيد الله فقال : قد والله أحسنت يا أمير المؤمنين وَوُفِّقْت ، فهم أهل سوء .

فقال عمر رضي الله عنه : من معك على مثل رأيك ؟

قال : المهاجرون جميعاً والأنصار ، فَسُرَّ بذلك عمر رضي الله عنه .

« لا يبقى بجزيرة العرب دينان[2] » :

فلما أجمع الصحابة على ذلك ، جاء أحد بني الحقيق فقال : يا أمير المؤمنين ، أتخرجنا وقد أقرنا محمد وعاملنا على أموالنا ، وشرط ذلك لنا ؟

---

(1) خرج إلى خيبر يمتار منها تمراً ، فوجد في عين كسرت عنقه ، ثم طرح فيها ، ثم أخذوه فغيَّبوه ـ وكان الفاعل أهل حصن الشّقّ ـ فسألهم أخوه ومعه ابنا عمه حُوَيِّصَة ومُحَيِّصة ابنا مسعود ، فقالوا : لا والله ما لنا به من علم . وأعلم حويّصة رسول الله بذلك ، فقال ﷺ : إما أن يدوا صاحبكم وإما أن يأذن بحرب ، وكتب ﷺ إليهم في ذلك ، فأنكروا فعلتهم ، فواداه ـ أعطاهم ديته ـ رسول الله ﷺ من عنده بمئة ناقة .

(2) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٦٨ ، وفي السيرة النبيوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٤١٥ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٥١ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٢٨و ٢٣١ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٣٩ ، البلاذري (فتوح البلدان ص ٤١) ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢١٩ : « لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان » .

فقال عمر رضي الله عنه : أتراني سقطَ عليَّ[1] قولُ رسول الله ﷺ : « كيف بك إذا وقَصَتْ بك[2] راحلتك نحو الشام يوماً ثم يوماً » ؟

وفي رواية السيرة الحلبية : أظننت أني نسيت قول رسول الله ﷺ لك : « كيف بك إذا أُخرجت من خيبر يعدو بك قلوصك[3] ليلة بعد ليلة » ؟ فقال : هذه كانت هزيلة[4] من أبي القاسم ، فقال عمر : كذبت يا عدو الله .

وبلغه رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ : « لا يبقى دينان في جزيرة العرب » ، وقوله ﷺ : « لأُخرجن المشركين من جزيرة العرب » ، وقوله ﷺ في آخر ساعاته : « أَخرجوا اليهود من الحجاز » .

تفحَّص عمر رضي الله عنه ذلك حتى تيقَّنه ، فقال لليهود : فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ فليأتي به أُنفِّذه له ، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهَّز للجلاء[5] . فأجلى رضي الله عنه يهود خيبر ، وأعطاهم قيمة

---

(١) أي : نسيت وغاب عن ذاكرتي .

(٢) وَقَصَتْ : أسرعت .

(٣) القَلُوص من النُّوق الشَّابَّة ، وهي بمنزلة الجارية من النساء ، وجمعها : قُلُص وَقَلائص ، مختار الصحاح : ص٥٤٨ .

(٤) الهَزْل ضدُّ الجِدِّ ، مختار الصحاح ص ٦٩٥ .

(٥) الطبري : جـ ٣ ص ٢١ .

ما كان لهم من ثمر وغيره ، كما أجلى يهود فَدَك ونصارى نجران .

ولم يخرج رضي الله عنــه يهـود وادي القرى وتيماء ، لأنّهما من أرض الشام لا من الحجـاز، فلقـد ورد : المراد بجزيرة العرب الحجـاز المشتملة عليه ، فالمراد من جزيرة العرب بعضهـا وهو الحجـاز خـاصـة ، لأن عمر رضي الله عنه لما أجلاهم ذهب بعضهم إلى تيماء ، وبعضهم إلى أريحا ، وتيماء من جزيرة العرب ، لكنها ليست من الحجاز.

ثم خرج عمر رضي الله عنه ومعه المهاجرون والأنصار، وخرج معـه جبار بن صخر ويزيد بن ثابت ، فَقَسَما خيبر على أصحـاب السِّهام التي كانت عليها كما قُسِمَت على عهد رسول الله ﷺ[1] .



وادي القرى[2] :

ثم عنـد منصرفـه ﷺ من خيبر أتى وادي القرى ـ وأهلــه يهـود ـ ، فعبّى رسول الله ﷺ أصحابـه للقتـال وصَفَّهم ، ودفع لواءه إلى سعـد بن

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٤/ب ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٣١ ، السيرة الحلبيـة : جـ ٣ ص ٦٨ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٤١٣ .

(٢) لأخبـــار غـــزوة وادي القرى راجـع : السيرة الحلبيـــة : جـ ٣ ص ٦٨ و ٦٩ ، الطبري :جـ ٣ ص ١٦ ، ابن هشـام : جـ ٣ ص ٢١٨ ، فتـوح البلـدان للبـلاذري : ص ٤٧ ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ٢١٨ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٥٠ ، عيـون الأثر : جـ ٢ ص ١٤٣ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٥٥ .

عبادة ، وراية إلى الحُبَاب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حُنَيف ، وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وأخبرهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم ، وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله[1] ، فامتنعوا من ذلك وقاتلوا ، فبرز رجل منهم فقتله الزبير بن العوام ، فبرز آخر فقتله علي رضي الله عنه ، ثم برز آخر فقتله أبو دجانة ، فقاتلهم المسلمون إلى المساء ، وقُتِل منهم أحد عشر رجلاً ، وغدا عليهم المسلمون في اليوم التالي ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أيقنوا بالهلاك ، ففتحها رسول الله ﷺ عنوة ، فغنم ما فيها ، وترك الأرض والنخيل في أيدي أهلها ، وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر ، « لقد مَنَّ رسول الله ﷺ على يهود ـ وادي القرى ـ وترك في أيديهم أراضي وادي القرى والبساتين والحدائق يعملون فيها ويأخذون الأُجرة » .

ولما بلغ أهل تيماء ما فعل رسول الله ﷺ بأهل خيبر وفَدَك ووادي القرى صالحوه على الجزية فأقاموا ببلادهم وأرضهم في أيديهم ، وولاَّها رسول الله ﷺ يزيد بن أبي سفيان ، وكان إسلامه يوم فتحها[2] .

وذكر البيهقي أن بني فزارة أرادوا أن يقاتلوا رسول الله ﷺ وهو

(١) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٤١٣ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٤٥ .

عائد من خيبر، وتجمَّعوا لذلـك، فبعث إليهم يواعـدهم موضعـاً معينـاً، فلما تحقّقوا ذلك هربوا كل مهرب، وذهبوا من طريقه كل مذهب.

☆ ☆ ☆

مَنِ استُشْهِدَ بِخَيْبَرَ مِنَ الصّحَابَة[1]:

☆ من المهاجرين:

١ ـ ربيعة بن أكثم بن سَخْبَرة الأسدي.
٢ ـ ثقيف بن عمرو.
٣ ـ رفاعة بن مَسْروح.
٤ ـ عبد الله بن الهُبَيْب بن أُهيب بن سُحَيم بن غِيرة[2].

☆ ومن الأنصار:

٥ ـ بِشْر بن البَراء بن مَعْرور.
٦ ـ مَسعود بن سعد بن قيس بن خالد بن عامر بن زُرَيق الزُّرقي.
٧ ـ فُضَيل بن النعمان السَّلْمي.
٨ ـ محمود بن مَسْلمة الأَشْهلي.

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٤٠٦، عيون الأثر: جـ ٢ ص ١٣٠، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٢١٤، ابن هشام: جـ ٣ ص ٢٢١، الروض الأُنف: جـ ٤ ص ٦٣.

(٢) وقيل: «غبرة» كما في عيون الأثر: جـ ٢ ص ١٣٠.

٩ ـ أبو ضَيَّاح[١] حارثة بن ثابت بن النعمان العَمْري .

١٠ ـ الحارث[٢] بن حاطب .

١١ ـ عروة بن مُرّة[٣] بن سُراقة .

١٢ ـ أوس بن الفائد[٤] .

١٣ ـ أُنيف بن حبيب .

١٤ ـ ثابت بن أَثلة .

١٥ ـ عمارة بن عقبة .

١٦ ـ عامر بن الأكوع .

١٧ ـ سلمة بن عمرو بن الأكوع .

١٨ ـ الأسود الراعي .

١٩ ـ مسعود بن ربيعة .

٢٠ ـ أوس بن قتادة[٥] .

٢١ ـ طلحة ـ ولم يقف المؤرخون على نسبه ـ

☆ ☆ ☆

---

(١) وقيل : أبو الصباح بن ثابت ، وقال الطبري اسمه النعمان بن ثابت بن النعمان ، وقيل أيضاً : عمير .

(٢) في عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣٠ : الحرث .

(٣) في عيون الأثر : عروة بن برة بن سراقة .

(٤) وقيل : ابن قتادة ، وقيل : ابن فاتك ، أو ابن فارض .

(٥) وقيل : أوس بن عائذ .

ومَّا قِيلَ مِنَ الشِّعْرِ في غَزْوة خَيْبَر:

قول حسان بن ثابت:

بئس ما قاتلت خَيابرُ عَمّا ... جَمعوا من مزارعٍ ونخيلِ
كرهوا الموتَ فاستُبيح حماهم ... وأقرُّوا فعلَ الذميم الذليلِ
أمن الموت يهربون؟ فإن المو ... ت موت الهزال غير جميلِ

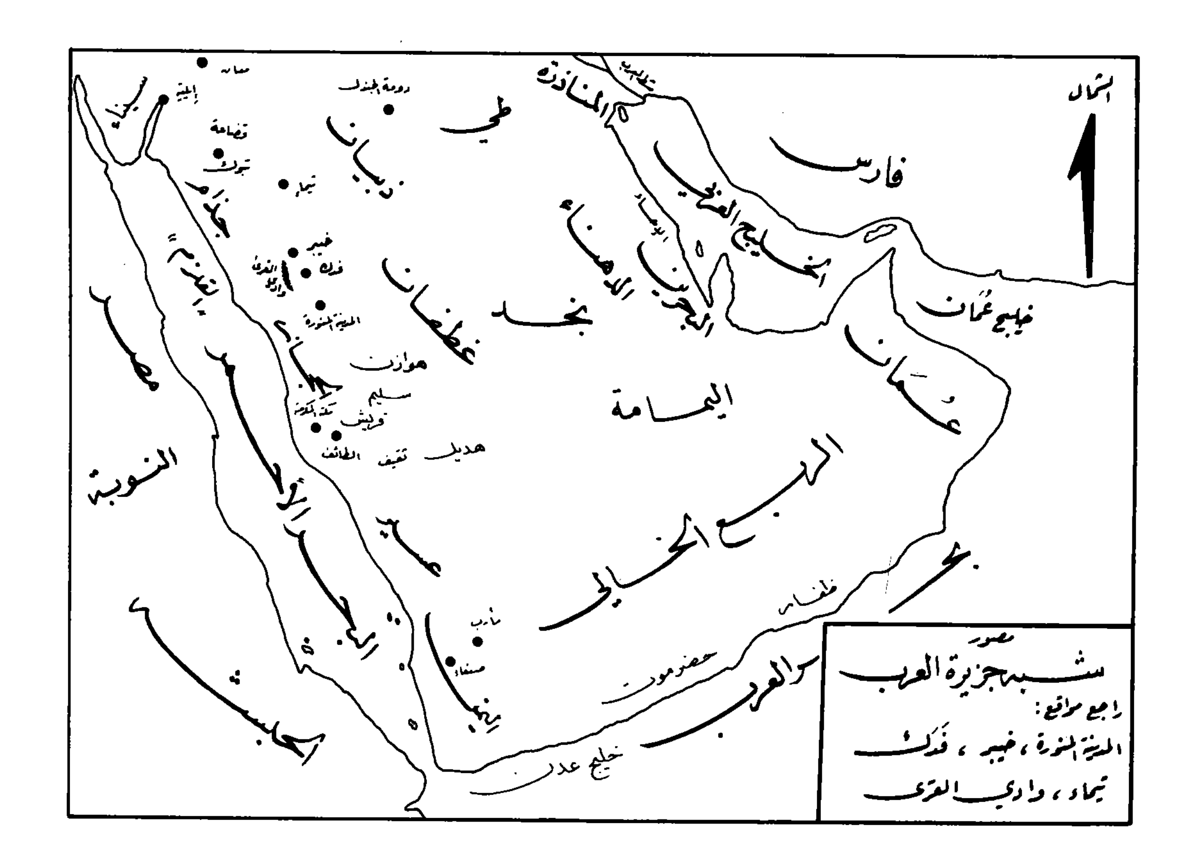
وقول كعب بن مالك:

ونحنُ وَرَدْنا خيبراً وفروضَهُ ... بِكُلِّ فتى عَارِي الأَشاجعِ مِذْودِ[1]
جوادٍ لدى الغاياتِ لا واهِنِ القوى ... جريءٍ على الأعداء في كلِّ مَشْهَدِ
عظيمِ رَمادِ القِدْرِ في كل شَتْوَةٍ ... ضروبٍ بنَصْل المشرفيِّ المهنَّدِ[2]
يرى القتلَ مَدْحاً إن أصاب شهادةً ... من الله يرجوها وفوزاً بأحمدِ
يَذُود ويحمي عن ذِمَار محمدٍ ... ويَدْفع عنه باللسان وباليَدِ
وينصره من كل أمرٍ يَريبَهُ ... يَجُودُ بنفسٍ دون نفسِ محمَّدِ
يُصدّقَ بالأنباء بالغيبِ مُخْلِصاً ... يُرِيدُبذاكَ العزَّ والفوزَ في غدِ

☆ ☆ ☆

(١) الفروض: مواضع الشرب من الأنهار، والأشاجع: عروق ظاهر الكف، والمذود: الحامي المدافع.

(٢) النَّصْل: نَصْل السَّهم والسَّيف والسِّكين والرُّمح، والجمع: نُصُول ونِصَال، والمشرفي: نوع من السيوف منسوبة إلى مَشَارِف وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف (مختار الصحاح: ص ٣٣٥)، والمُهَنَّد: السَّيف المطبوع من حديد الهند، (مختار الصحاح: ص ٧٠٠).


مصور
شبه جزيرة العرب
راجع مواقع:
المدينة المنورة ، خيبر ، فدك
تيماء ، وادي القرى
الشمال
فارس
الخليج العربي
خليج عُمان
عُمان
المناذرة
طي
ذبيان
الدهناء
البحرين
نجد
غطفان
اليمامة
الربع الخالي
سيناء
دومة الجندل
قضاعة
تبوك
تيماء
جذام
خيبر
فدك
المدينة المنورة
هوازن
سليم
قريش
هذيل
ثقيف
الطائف
عسير
مأرب
صنعاء
اليمن
حضرموت
ظفار
بحر العرب
خليج عدن
البحر الأحمر
القلزم
مصر
النوبة
الحبشة

عمرة القضاء

عمرة القصاص ـ عمرة القضية

☆ ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾.

[الفتح : ٢٧]

وبعد خيبر كانت بعض السرايا[١] حتى حان موعد عُمْرة القضاء، أهمها :

١ ـ سَرِيَّة أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى بني فزارة :

خرج أبو بكر رضي الله عنه إلى بني فزارة، فلما دنا ومن معه من مواقع تواجدهم، ضرب معسكره، وفي الصباح كان تأديب بني فزارة، الذين كانوا معنوياً ومادياً مع قريش، يكيدون للإسلام وأهله .

٢ ـ سَرِيَة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تربة[٢] من أرض هوازن :

(١) لأخبار هذه السرايا راجع المصادر التالية : السّيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٤١٧ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٤٥ ، الطبري : جـ ٣ ص ٢٢ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٢٠ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٧٠ ، السّيرة النبويّة والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص ٢٥٦ .

(٢) وراء مكة بأربعة أميال .

ثم أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ثلاثين راكباً ومعه دليل من بني هلال ، فكان ومن معه يسير الليل ، ويكمن النهار ، فلما انتهى إلى بلادهم هربوا منه ، فعاد رضي الله عنه بمن معه إلى المدينة .

٣ ـ سَرِيَّة عبد الله بن رواحة إلى يَسير بن رِزَام اليهودي :

كما بعث ﷺ عبدَ الله بن رواحة رضي الله عنه في ثلاثين راكباً إلى يسير بن رِزام اليهودي حتى أتوه بخيبر، وهو يحرِّض غطفان[١] ليغزو المدينة ، فقال له عبد الله بن رواحة ومن معه : أرسلنا إليك رسول الله ﷺ ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجل منهم رديف من المسلمين ، فلمّا بلغوا (قَرْقرة نِيَار) ـ وهي من خيبر على ستة أميال ـ ندم يسير بن رِزَام ، فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن رواحة ، ففطن له عبد الله فزجر بعيره ، ثم كرَّ على يسير فضرب رجله فقطعها ، وضرب يسير وجه عبد الله بن رواحة بِمِخْراش من شَوْحَط[٢] كان بيده ، فشجَّه شَجّة مَأْمومة[٣] ، وانكفأ كل رجل من

---

(١) فاوض يَسِير زعماء غطفان ليغزو المدينة ، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك ، فأرسل له هذه السريّة التأديبية بقيادة عبد الله بن رواحة .

(٢) مِخْراش ومِخْرَش : عصا معوجَّة الرأس كالصولجان ، وهو المحجن ، (لسان العرب : جـ ٦ ص ٢٩٣) ، وشَوْحَط : نوع من الشجر ، والشوحط والنبع شجر واحد ، فما كان منها في قُلّة الجبل فهو نبع ، وما كان منها في سفحه فهو شَوْحَط ، (لسان العرب : جـ ٧ ص ٣٢٩) .

(٣) أي في أم رأسه .

المسلمين على رديفه فقتله، غير رجل واحد من اليهود أعجزهم، ولم يُصَب من المسلمين أحد.

٤ ـ سَرِيَّة أبي حَدْرَد إلى الغابة:

أقبل رُفَاعة بن قيس[1] ـ وكان ذا اسم وشرف ـ في حشد عظيم من جشم، ونزل بقومه ـ ومن معه ـ بالغابة قرب المدينة، يريد أن يجمع من يستطيع جمعه لمحاربة رسول الله ﷺ. فأرسل له ﷺ أبا حَدْرَد في نفر من المسلمين يستطلعون الخبر، وتمكّن أبو حدرد ومن معه من قتل رفاعة وتشتيت شمل جمعه الذي جمعه.

☆ ☆ ☆

عُمْرَةُ القَضاء (عمرة القِصَاص، عمرة القَضِيَّة):

أمر رسول الله ﷺ الناس أن يتجهَّزوا للعمرة، فتجهَّزوا وخرجوا إلى مكة في شهر ذي القعدة من سنة ٧ هـ.

وخرج معه ﷺ المسلمون ممن كان صُدَّ في عمرة ذي القعدة سنة ٦ هـ، ولم يتخلَّف أحد ممن شهد الحديبية إلاَّ من استُشْهِد في خيبر، أو مات في السنة المنصرمة، وخرج معه ﷺ من لم يشهد الحديبية، فبلغ

---

(١) أو قيس بن رفاعة.

من خرج معتمراً أَلْفَين ، ومعهم مئة فَرَس ، وسار معه ﷺ ستون بَدَنة .

وخرج رسول الله ﷺ ومن معه بكامل السِّلاح ، سلاح المحارب الكامل ، خشية أن يقع من قريش غدرة ، لقد أخذ كامل السِّلاح احتياطاً وتوثُّقاً وحذر غدر قريش .

ولما سمعت قريش بقدومه ﷺ بعثت مِكْرز بن حفص بن الأحنف في نفر من رجالاتها ، حتى لقوه ﷺ ببطن (يَأْجِج) معه أصحابه والسلاح والهَدْي ، فقالوا : يا محمد ما عُرِفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسِّلاح في الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم ألاّ تدخل إلاّ بسلاح المسافر ، السُّيوف في القرب ؟

فقال رسول الله ﷺ : « لا ندخل عليهم بالسِّلاح ، ولكن يكون قريباً منا فإن هاجنا هيج من القوم كان السِّلاح قريباً منا » .

فقال مكرز بن حفص : هذا الذي تُعْرف به ، البرّ والوفاء ، ثم عاد مسرعاً بأصحابه إلى مكة ، وأعلم قريشاً بما جرى ، فخرج قسم من قريش من مكة إلى رؤوس الجبال ، وخلّوا مكة وقالوا : لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه .

وأشاعت قريش قائلة : إنه يَقْدُم عليكم وَفْدٌ وهنتهم حُمَّى يثرب ، إن محمداً في عُسْرة وجهد وشدّة ، فأمر رسول الله ﷺ

بـ (الاضطباع)[1] ، فكشف المسلمون عن مناكبهم ، وقال ﷺ : « رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة » ، وقال ﷺ : « لا يرى القوم فيكم غَمِيزَة[2] » .

وجعل ﷺ السِّلاح في بطن يَأْجِج[3] ، وتخلَّف عنده جَمْع من المسلمين نحو مئتين عليهم أوس بن خولي ومعه مئة فرس .

ودخل رسول الله ﷺ والمسلمون مكة ، في قمة العزّة ، فهذه العمرة بعد طرد وهجرة وملاحقة ، وبعد قتال وحرب في بدر وأحد والخندق ، وهذه العمرة بعد نصر خيبر ، الذي هزَّ وفاجأ القبائل العربية كلها بلا استثناء .

دخل رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته[4] ، وهو يقول :

خَلُّوا بني الكفار عن سبيلِهِ   خلُّوا فَكُلُّ الخَيْرِ في رسولِهِ

---

(١) الاضطباع الذي يُؤمر به الطائفُ بالبيت أن تدخل الرداء من تحت إبطك الأيمن وتغطِّي به الأيسر كالرجل الذي يريد أن يعالج أمراً فيتهيَّأُ له ، يقال : قد اضطبعت بثوبي ، وهو مأخوذ من الضَّبع وهو العضد ، (لسان العرب : جـ ٨ ص ٢١٦) .

(٢) الغَميزُ والغَمِيزَةُ : الضعف في العمل ، والغَمِيزَةُ : العيب (لسان العرب : جـ ٥ ص ٣٨٩) .

(٣) موضع قريب من الحرم .

(٤) الخِطام : كل حبل يُعَلَّق في حَلْق البعير ثم يعقد على أنفه ، (لسان العرب : جـ ١٢ ص ١٨٦) ، وفي رواية : « وهو آخذ بغرزه » .

يــا ربِّ إني مُــؤْمِنٌ بقيلِــه أعرفُ حـقَّ الله في قَبـولِـه
نحن قتلنـاكم على تــأويلِـه كما قتلنـــاكم على تنزيلِـــه
ضرباً يزيلُ الهامَ على مَقيلـه ويُذْهل الخليلَ عن خليلِه[1]

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أيضاً :

باسمِ الـذي لا دينَ إلا دِينُـه بـاسم الـذي محمَّـدٌ رسولُـه
خلوا بني الكفار عن سبيله

فقال له عمر رضي الله عنه : مه يا ابن رواحة ، بين يدي رسول الله ﷺ ، وفي حرم الله تقول الشعر ؟

فقـال رسـول الله ﷺ : « خـلِّ عنـه يـا عمر ، فلهـو أسرع فيهم من نضح النبل » ، وقـال ﷺ لابن رواحـة : « قـل : لا إلـه إلا الله وحـده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » ، فقالها ابن رواحة ، وقالها الناس .

---

(١) قال ابن هشام : نحن قتلناكم على تأويله إلى آخر الأبيات لعمار بن ياسر في غير هـذا اليوم - يعني يوم صفِّين - . ووردت الأبيات أيضاً كما يلي :

خلُّـوا بني الكفــارِ عن سبيلـــه أنـــا الشَّـهيـــدُ أنـــه رسـولُـــه
قـــد أنـزلَ الرحمنُ في تنزيلـــه في صحف تُتْلى على رســولِـــه
فـــاليـوم نَضْربكم على تــأويلــه كما ضربنـــاكم على تنزيلـــه
ضربــاً يــزيـل الهـامَ عن مَقيلـه ويُـــذهـل الخليـلَ عن خليلـــه

- السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٤٣٢ .

وحول الكعبة المشرَّفة أخذ المسلمون يرملون الأشواط الثلاثة ، ويمشون ما بين الركنين ، ليرى المشركون جَلَدهم وقوَّتهم .

لقد ورد : ثم استلم - ﷺ - الركن ثم خرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم واستلموا الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطراف ومشى سائرها . فقالت قريش لما رأت هذا الموقف الذي يشع قوة وعزة وفخراً وكرامة : ما يرضون بالمشي ، أما إنهم لينفرون نفر الظّباء .

ولما قضى رسول الله ﷺ نُسُكَه في عمرة القضاء دخل البيت ، فلم يزل فيه حتى أَذَّن بلال رضي الله عنه فوق ظهر الكعبة ، فقال عكرمة بن أبي جهل : لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول .

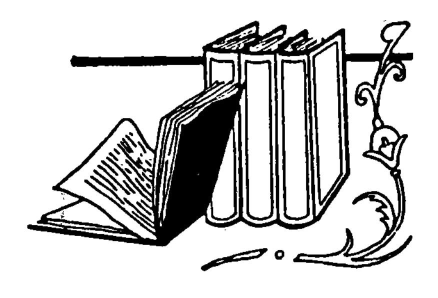
وقال صفوان بن أُميَّة : الحمد لله الذي أذهب أَبي قبل أن يرى هذا .

وقال خالد بن أُسَيد : الحمد لله الذي أمات أَبي ولم يشهد هذا اليوم حتى يقوم بلال ينهق فوق البيت .

أما سهيل بن عمرو ورجال معه لما سمعوا بذلك غطُّوا وجوههم .

وفي اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحُوَيْطِب بن عبد العزّى ،

فصاح حويطب : نناشدك الله والعَقْـد[1] لّما خرجت من أرضنـا ، فقـد مضت الثلاث . فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع فأذّن بالرحيل[2] .



(١) العَقْد : صلح الحديبية الذي قرَّر بقاء رسول الله ﷺ - ومن معه - ثلاثة أيام فقط في مكة .

(٢) إن مشهد رسول الله ﷺ في مكة هزّ النفوس هزّاً ، فإذا بميمونة بنت الحارث التي كانت في السـادسـة والعشرين من عمرهـا وقـد مـات زوجهـا أبو رهم بن عبـد العـزى فترمّلت ، تفضي إلى شقيقتهـا أم الفضل زوج العبـاس برغبتهـا في الزواج من رسول الله ﷺ ، وحمل العبـاس الخبر لرسول الله ﷺ قائلاً : إنهـا وهبت نفسهـا لـك ، فـأنزل الله عز وجل ﴿ وامرأةً مؤمِنَـةً إن وهبت نَفْسَهـا للنبي ﴾ [الأحزاب : ٥٠] فتزوجها ﷺ وصحبها إلى المدينة المنوّرة .

خاتمة

نتائج ونظرات

☆ هَيَّأ انتصار المسلمين في خيبر، كما هيَّأت عمرة القضاء القلوبَ عند فتح مكة لاعتناق الإسلام، بما أثاره الإعجاب بنظام المسلمين والتفافهم حول رسول الله ﷺ، ودقة تنظيم حياتهم في صلاتهم ومناسك حجِّهم.. مع تراحمهم وتآلفهم، ويقينهم في إتمام تبليغ الرسالة.

دور المرأة المسلمة في غزوة خيبر:

شارك في غزوة خيبر عشرون امرأة، فيهن صفية عمَّة رسول الله ﷺ وأُم سليم وأُم عطية الأنصارية. لماذا شاركن؟ وماذا عملن وحققن؟

قلن: يارسول الله، قد أردنا الخروج معك:

١ً ـ نعين المسلمين ما استطعنا.

٢ً ـ نناول السهام.

٣ً ـ ونسقي السَّويق .
٤ً ـ ومعنا دواء للجرحى .
٥ً ـ ونغزل الشَّعر فنعين به في سبيل الله .

فقال ﷺ : « على بركة الله » .

قالت أُم عَطِيَّة الأنصارية[1] : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فنداوي الجرحى ، ونمرِّض المرضى[2] .

وخرجت طفلة لم تبلغ سن رشدها بعد ، قالت : يارسول الله ، قد أردنا الخروج معك إلى وجهك ـ إلى خيبر ـ فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال ﷺ : « على بركة الله » ، قالت : فخرجنا معه فلما افتتح خيبر رضخ[3] لنا ، وأخذ قلادة ووضعها في عنقي ، فوالله لا تفارقني أبداً ، وأوصت أن تدفن معها .

لقد شاركت المرأة المسلمة الرجل المسلم في جهاده أيام رسول

---

(١) اسمها نسيبة بنت الحارث ، جاء في ترجمتها في أُسد الغابة : جـ ٧ ص ٣٦٨ : « كانت من كبار نساء الصحابة ، وتغزو مع رسول الله ﷺ » .
(٢) الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٦٦ .
(٣) رَضَخَ : الرَّضْخُ : العطاء من الغنيمة غير محدد ، الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٣/أ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٦٦ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٢١ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٣٣ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٨٧ .

الله ﷺ ، وتحمّلت المسؤولية التي تناسب أُنوثتها ، كل ذلك بجو ملائكي من الطهر والعفاف من الطرفين .

☆ ☆ ☆

مَعْنَوياتُ قَرَيش بعد خَيْبَر :

صدم انتصار المسلمين في خيبر قريشاً ، وجعلها مذهولة حائرة ماذا عساها تصنع مع محمد وصحبه ، جعلها في موقف لا تدري فيه ماذا تصنع حيال هذا السَّيْل الجارف الذي لا تستطيع له صدّاً ، وهذا القضاء النازل الذي لا تملك له ردّاً .

لقد أيقنت قريش ، وأيقن العرب معها ، أن لا حيلة لهم في مقاومة هذا الدين ، فسيستسلمون لواقع الأمر ، ولم يعد هناك من يفكِّر في مناوأة الإسلام من أهل الجزيرة غير شرذمة قليلة من أعراب البوادي ، وجعلوا يَتعرَّضون له كما يتعرَّض الغُثاء في طريق السَّيل ، فيكتسحه السَّيل أَمامه ثم يُلْقي به على جوانبه ، وكان لابد لهؤلاء أن تنالهم عصا التأديب ، فكان رسول الله ﷺ يبعث إلى هنا وهناك سراياه في فرق كفرق الشرطة لتوطيد الأمن ، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة ، دون غدر أو خيانة[1] .

---

(١) صور من حياة الرسول بتصرُّف : ص ٤٩٥ .

تسامحه ﷺ بعد تمام الفتح :

راهنت قريش والقبائل العربية على انتصار اليهود ، وظنوا أن اليهود ستمنعهم أعدادهم وقلاعهم ، فرهبت ـ بعد انتصار المسلمين في خيبر ـ جانب المسلمين ، فالمسلمون قوة يحسب لها حسابها في كل جزيرة العرب .

وعلى الرغم من القضاء على نفوذ اليهود الأدبي والأرستقراطي في شبه جزيرة العرب ، تسامح رسول الله ﷺ معهم ، فلم يرق دماءهم بعد انتصاره الحاسم ، رغم مؤامراتهم وتحالفهم وتزعمهم بعض العرب ضد المسلمين ، لم يجلهم ﷺ ، بل ترك لهم الأرض يفلحونها بأنفسهم على أن يُؤدوا نصيباً مما يُزْرَع ، ورد لهم صحائف التوراة التي غنمها المسلمون أثناء القتال ، وتزوَّج بنت أحد أشرافهم ، صفيَّة بنت حُيَيّ بن أخطب ، وذلك لإزالة البغضاء والحقد بالمصاهرة ، كما زاولوا شعائرهم وطقوسهم بكل حريَّة .

ومما يذكر هنا ، رغم التباين الواضح في القوى المادية الظاهرة ، والفارق الملموس من حيث الأسباب ، انتصر المسلمون ، مما حطم معنويات يهود فَدَك وتيماء ووادي القرى ، فعاملهم رسول الله ﷺ بالمبادئ ذاتها التي عامل بها يهود خيبر .

☆ ☆ ☆

نظرات وملاحظات :

١ً ـ من أسباب الفتح السريع قطع الجداول ، والجو الحار في آب (أغسطس) ، فلم يصبر اليهود المحاصرون على العطش ، فاستسلموا .

٢ً ـ كان اليهود ـ كعادتهم ـ يقاتلون أمام الحصون ، لأنهم يخشون الحرب في الميدان ، فإذا انهزموا عادوا إلى حصونهم ، وأغلقوها دونهم ، ومع ذلك لم تثبت تلك القلاع الحصينة المحاطة بالخنادق أمام بسالة المسلمين .

٣ً ـ لقد أَوْلى رسولُ الله ﷺ الخيلَ عنايته بعد بدر ، فبعد أن كنا نرى فَرَسَيْن أو أكثر قليلاً في بدر وأُحد والخندق ، نرى في غزوةَ خيبر مئتين من الخيل . مما يدل على إعطاء الخيل أهميَّةً من قبل رسول الله ﷺ ، إما تربيةً وتكاثراً ، وإما شراءً وتجارة .

٤ً ـ لقد عانى المسلمون من شِدَّة نقص المواد التموينية أثناء حصار حصون خيبر ، حتى ذبحوا الحُمُر الأهلية لأكلها ، في هذه الحال قَدِم يسار العبد الأسود الراعي وأسلم ، ثم قال : يا نبي الله إن هذا الغنم عندي أَمانة .

فقال له ﷺ : « أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصا ، فإن الله سيؤدّي عنك أمانتك » ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى صاحبها مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن .

هذه الأمانة النادرة في هذه الظروف القاسية، تجعلنا نقف وقفة إعجاب واحترام أمام الوفاء والأمانة.

٥ً- أدهش رسول الله ﷺ غطفان واليهود في خيبر في آنٍ واحد، عندما أوهم غطفان أنه يريدها فعادوا إلى أرضهم وأموالهم وأبنائهم، وفي الوقت ذاته أوهم خيبر أنه يريد غطفان ولا يريدهم، مما أمَّن عنصر المفاجأة، وبخاصة أنه ﷺ وصل بالمسلمين إلى خيبر ليلاً، فاستيقظ أهلها والحصار حول حصونهم.

وفي عمرة القضاء:

وأخيراً.. لقد دخل رسول الله ﷺ مكة بعد نصره في خيبر، أي بعد أن دوّى هذا النصر في الجزيرة العربية، وفي خارجها، وعلى هذا فيمكننا القول:

١ً- دخل ﷺ بمن معه في عزّ، بعد أن كان المطلوب المطارد عند الهجرة.

٢ً- وكان ﷺ حريصاً على تنفيذ بنود صلح الحديبية دون خرق أو مماطلة أو نكث لوعد.

٣ً- سار ﷺ إلى عُمْرة القضاء بكامل السّلاح، وأبقاه خارج مكّة تطبيقاً للعهد، كل ذلك حذراً ويقظة واحتراساً.

وهـذا درس عظيم للمتـواكلين الـذين لا يـأخـذون بـالأسبـاب ، ويقولون : دعوهـا لله ولا يعملون ، رسول الله ﷺ سيـد المتـوكلين على الله ، وكامـل السِّلاح معـه في عمرة القضـاء ! ! درس رائـع في اليقظـة والحذر والاحتراس . لقد تيقَّن ﷺ من أنـه ﴿ لن يصيبنـا إلا مـا كتب الله لنا ﴾[1] ، ولكن هذا بعد الأخـذ بكامل الأسبـاب ، وأتم الاستعـداد ، وترك الباقي على مسبب الأسباب .

٤ً ـ الاضطباع نقض عملي بلسان الواقع لأراجيف قريش وشائعاتها المغرضة ، الاضطبـاع تظـاهرة قوة أثبتت عمليـاً أن حمّى يثرب لم توهن مسلماً واحداً ، فهذه زنود أيدينا اليمنى ـ والتي كانت تجاه تواجد قريش ـ تثبت صحة الجسد ، وهذه الهرولـة تثبت نشـاط وقوّة الجسم وسلامتـه . فمـا تشيعون يـا زعمـاء قريش ، هـذا واقعنـا خلال الأيـام الثـلاثـة التي قضيناها عندكم يدحض ما تزعمون .

٥ً ـ وقف بلال ـ العبـد الرقيق قبـل الإسـلام ـ فـوق الكعبـة يعلن أذان الظهر ، فـدهشت قريش ورجـالاتهـا ، بلال العبـد فوق الكعبـة ؟ كيف يقع هـذا ؟ إن الإسلام رفعـه ، وإيمـانـه جعلـه يعلو فوق الكعبـة ليعلن أمام أعين قريش وعلى مسامعها : (الله أكبر ، الله أكبر ، لا إلـه إلا الله ، محمد رسول الله) .

---

(١) [التوبة : ٥١] .

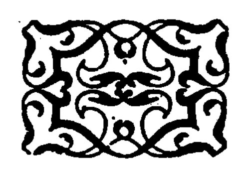
وهذا الموقف أحرج قريشاً أمام عبيدها ، فكان نصراً آخر في مجال تحرير العبيد ، وخطوة فعَّالة لدخولهم في الإسلام .

☆ ☆ ☆

لقد انتصر رسول الله ﷺ بالتخطيط والحكمة ، وبربط المسببات بأسبابها .

نُصِر ﷺ بالمنطق والعقل ، بالإخلاص والدأب ، بعد تأييد الله له .

لقد قَرُبَ بعد غزوة خيبر اليوم الذي سيوحد جزيرة العرب فيه ، وحدة أمن ومحبَّة وإخاء ، فلا عصبية إلا للحقّ ، ولا تحيُّز إلا للخير ، ولا تضامن إلا مع العدالة والمساواة ، وعندها نُقِلت الأُمة العربية من التبعيَّة إلى التحرر ، ومن هامش حياة الشعوب إلى جوهر حياتها وأُسِّ وجودها ، ومن ذل إلى عزة ، ومن عذاب إلى نعيم ، ومن هاوية إلى قمة ، ومن الحمق والأوثان إلى الحكمة والإيمان ، ومن اللامبالاة إلى كامل المسؤولية .



المحتوى

☆ ☆ ☆

للمؤلف

١ - الإسلام في قفص الاتهام	الطبعة الخامسة
٢ - مَنْ ضيّع القرآن ؟	الطبعة الثانية
٣ - الإنسان بين العلم والدين	الطبعة الثالثة
٤ - هارون الرشيد	الطبعة الثالثة
٥ - غريزة .. أم تقدير إلهي ؟	الطبعة الرابعة
٦ - آراء يهدمها الإسلام	الطبعة الثالثة
٧ - الإسلام وحركات التحرر العربية	الطبعة الثانية
٨ - عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي	الطبعة الثانية
٩ - الهجرة « حدث غيّر مجرى التاريخ »	الطبعة الثانية
١٠ - جرجي زيدان في الميزان	الطبعة الثانية

☆ ☆ ☆

سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام »

١ ـ القادسية	بقيادة سعد بن أبي وقاص
٢ ـ اليرموك	بقيادة خالد بن الوليد
٣ ـ نهاوند	بقيادة النعمان بن مقرّن المزني
٤ ـ ذات الصواري	بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
٥ ـ فتح الأندلس	بقيادة طارق بن زياد
٦ ـ بلاط الشهداء	بقيادة عبد الرحمن الغافقي
٧ ـ فتح صقلية	بقيادة أسد بن الفرات
٨ ـ الزلاقة	بقيادة يوسف بن تاشفين
٩ ـ الأرك	بقيادة المنصور يعقوب الموحّدي
١٠ ـ العقاب	بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحّدي

١١ ـ مصرع غرناطة « أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر »

☆ ☆ ☆

غزوات الرسول الأعظم

بَدْر الكبرى : رمضان ٢ هـ / كانون الثاني ٦٢٤ م

غزوة أُحُد : شوال ٣ هـ / كانون الثاني ٦٢٥ م

غزوة الخندق : شوّال ٥ هـ / شباط ٦٢٧ م

صلح الحديبية : ذي القعدة ٦ هـ / شباط ٦٢٨ م

غزوة خيبر : المحرّم ٧ هـ / آب ٦٢٨ م

غزوة مؤتة : جمادى الأولى ٨ هـ / أيلول ٦٢٩ م

فتح مكة : رمضان ٨ هـ / كانون الثاني ٦٣٠ م

حُنَين والطائف : شوّال ٨ هـ / شباط ٦٣٠ م

غزوة تبوك : رجب ٩ هـ / تشرين الأول ٦٣٠ م

حُروبُ الرِّدّة : « في خلافة الصديق سنة ١١ هـ »